دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أعيدوا كتابة التاريخ

دار الشروق

أعيدوا كتابة التاريخ

الطبعة الاولى

يونيو ١٩٧٤

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص. ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت
جـــدة : ص. ب ٤١٤٦ ت ٢٦٦١٠ برقيا : شوركورب جدة

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

أعيدوا كتابة التاريخ

دار الشروق

من مؤلفـــات الكاتبة

* شخصية مصر
* النيل فى الأدب المصرى
* قمم أدبية
* أدب المـــازنى
* فى بلادى الجميلة
* خصائص الشعر الحديث

الغلاف للفنان مصطفى حسين

مقدمة

فى هذا الكتاب مواجهة فاحصة للمفاهيم الخاطئة فى تفكيرنا ، للأوضاع الدامية فى حياتنا بالتحليل والاستقصاء والغوص عن الاسباب الجذرية ... فطالما كتبت عن شخصية مصر وكنت فى انسحاق الهزيمة ، أتعمد أن أجلو ايجابيات هذه الشخصية وعطائها فى ماضيها الطويل لاعطى الامل للنفس المصرية ، وأنفض بعضا من أحمال وأوحال اليأس التى رزحت تحتها حتى كادت تختنق كمدا وهوانا ....

اما وقد انجابت الظلمات وتنفس الصبح فلا ضير بل **لابد** من كشف السلبيات لا شهوة فى النقد أو السادية أو تحطيم أشخاص فان هدف المصرى العابد اكبر من هذا وأكرم وأرفع ... ملاك الأمر عندى **الا تتكرر المأساة** اذا لم نستفد من الاخطاء ، ونتب عن الخطايا ... وهنا تكون المواجهة ضرورة وفرضا ...

ان اى حاكم لا يقع الجرم عليه وحده ، ولا بالقدر الاكبر لانه لولا من يقبل الجور ما كان من يجور . ولهذا ينصرف اغلب ما فى هذا الكتاب من النقد ، الى الشعب لان الحاكم عادة فى البداية يكون متهيبا يتلمس مواطن رضاه فلما وجده يتهافت عليه ويغرق فى مدحه ثم تأليهه ، استخف به ...

ان هذا الكتاب صيحة فى وجه هواة الملق ودق الطبول ، الذى بدأ بالفعل نفاقهم الرخيص لا فى الظهور بل فى النمو والاستفحال ... الكتاب صيحة فى وجه من نظموا الكواكب عقود مدح بالامس ، ويعاودون الكرة اليوم بلا خجل ... حتى لا يؤذوا حاكما لديه الاستعداد للاصلاح والصلاح .

هذا الكتاب يتغيا مصر وحدها ... مصر البسيطة السمحة المؤمنة المعطاء دون نظر الى الالوان والمذاهب والايدولوجيات المختلفة فما أحبت مصر يوما التمذهب أو التطرف الى اليسار أو اليمين وكل من حاول صبغها بلون صارخ أو صاخب نفرت واستعصت عليه .. وسخرت منه فى النهاية حين يجد نفسه بعد الجهد والعناء يقف وحده وهى فى مكانها لا تريم .

لقد حاولت الدولة الفاطمية أن تمكن لنفسها فيها مائتى سنة ثم دالت الدولة الفاطمية فقلبت مصر الصفحة وكأن لم يك بها شىء اسمه الشيعة والشيعيون ...

وجاء دور الدولة الايوبية لتحاول فلم يكن نصيبها من تتبيع مصر أوفى حظا من غريمتها ...

لقد آمنت مصر بالاسلام فى صورته الاولى المصفاة التى توافق طبيعتها هى .

وآمنت بالمسيحية ، قبله ، بطريقتها هى فصارت المسيحية فيها دون غيرها من البلاد ، قبطية .

هذا هو موقف مصر من الاديان فكيف الحال مع من لا يرقى الى هذا الافق الاعلى ؟ مهما اختلفت أسماء .

مصر هى مصر وكفى .

وانا فى هذا الكتاب فى كل كلمة .. فى كل نبضة مصرية وكفى.. لها .. وعنها .. ومنها ينبع رأيى وسخطى ورضاى ... فلا أعرف غيرها ولا أدين بعد الله وكتبه ورسله الا بها ... أرى الأشياء والافعال والمعانى من خلال رؤيتها هى على مسار تاريخها الذى درسته ، ودينها الذى اعتنقته ، وأدبها الذى عشته وفكرها الذى سافرت فيه بالعقل والروح .

من هنا كتبت فصلا ضافيا عن الدين .

ومن هنا كتبت فصلا عن الفن .

لان مصر لها فى الدين والفن مفهوم خاص وأفق أرحب ..

ومن هنا ناقشت الأفكار الثابتة أو المفاهيم الثابتة التى نتوارثها بدون نقاش أو اقناع أو اقتناع . وغير هذا اسلوب مصر فى الأخذ والعطاء ...

ومن هنا وقفت عند الدعوة الى الدولة العصرية لأرش الضوء على خطاها فى الطريق الذى تختار بعد روية وتفكير .

فالكتاب فى فصوله كلها يدور ، شمعة ، حولها .. يستوحيها الفكرة ، ويستهديها المعنى ، ويفسح لها الطريق لتسير .

بنور من الله

وذخر من العلم

وهدى من الدين

فما رشدت مسيرتها يوما الا بكشف من هؤلاء .. وعطاء .

ومن هنا نريد :

الدين لله

والوطن للجميع

والعمل لذى الخبرة فيه

والأمر بيننا شورى

ليصلح آخرنا بما صلح به أولنا .. وهيهات أن يصلح الله ما بنا حتى نصلح ما بأنفسنا .. وكيفما نكن يول علينا ..

هذا الكتاب مرحلة أخرى من الرؤية لشخصية مصر .. فى محاولة موصولة للوفاء

بها

ولها

فاللهم اشهد ... ؟

دكتورة نعمات احمد فؤاد

أعيدوا كتابة التاريخ

مهما كتب الكاتبون أو تحدث المتكلمون عن (العبور) فان الأذن تسمع وتقدر وتعى لان العمل صنيع شعب ومولد أمة من جديد...ورد اعتبار لا عن هزيمة عسكرية فحسب ولكن عن جيل كامل كان يعيش ولا يحيا .

(العبور) بارادته ، وادارته ، واعجازه كان رد اعتبار عن حقبة من الفسولة والقماءة والعجز الاضطرارى فلم تمارس ملكات الشعب المصرى وطاقاته قدراتها الحقيقية حين اسقط من الحساب وعجز عن الحساب فلم يكن له رأى ولم تتح له فرصة وان كان فى أول الأمر أحس بغير قليل من الزهو القومى حين توهم بعد سقوط الملكية ومصاولة الاستعمار، انه صاحب الأمر من خلال مصرية الحاكم القحة، فاذا به توسم الخير ،من طيبة قلبه

فلما وقعت الواقعة ، أعطى الوعى للرجال حق التخطيط بما علموا ، فأعطى بدورة كل قادر وعالم عطاءه كاملا .

وهنا وحد الشعب نفسه ، ووجدته الدنيا حوله ، على حقيقته عندما أتيحت له الفرصة ، واشترك فى الرأى واضطلع بالعمل...

وهو درس من دروس (العبور) يجب أن نعيه ونتخذه منطلقا لألوان أخرى من العبور فى نواحى حياتنا كلها .

وهنا نقول : أعيدوا كتابة التاريخ .

توقفوا عند انجازات الطوب والاحجار واسألوا أنفسكم عمـــا وراءها ان كان وراءها شيء له قيمة باقية ... فليس الحـــاكم مقـــاولا لنقيبـــــه بما تم على يديه من مبان وصروح مما قام فى الحقيقة على أكتاف « الانفار » و « الفعلة » الذين رماهم بؤسهم أو خوفهم ففرضـــت عليهـــم لقمـــة العيش المـــرير أن يأتمـــروا بأمره ليسبح فى عرقهم ولو غرقوا صرعى .

أن العصر التاريخى أو عصر الحاكم يجب **أن** يقـــاس **بقيمـــة الانسان فيه** ... هل قال الفرد كلمته أو عبر عن رايه ؟ هـــل فيه حرية وأحرار ومفكرون ؟

ولنأخذ تجربة قريبة من تاريخنـــا الحـــديث ... فى العشرين الاخيرة من القرن التاسع عشر وفى الخمسين الاولى من القرن العشرين كانت مصر ترزح تحت الاحتلال البريطانى الذى قلنـــا فيه الكفاية من أوصاف السوء ، وبحق . فلنـــدع التشنجـــات اللفظية ونمض فى تحليل الظاهرة ...

فقدت مصر حريتها السياسية وهى ليست بالقليلة أو الهينة . ولكنها ايضا ليست انكى أنواع الفقد اذا أخذنا فى الاعتبـــار أن الفقد هنا عارض محكوم عليه بالزوال وقد حدث بالفعل بل لعـــل الفقد هنا لو جـــاز أن له وجها آخر ، يوقظ جوهر الشعب ويحفز عزائمه الى التفاعل والعمل فى محاولة الخلاص منه ...

فى عهد الاحتلال البريطانى وفى أوجه أى فى أعقاب فرض الحماية على مصر أراد الجنرال مكسويل بصفته حاكما عسكريا عاما ، أن يفرض الحراسة على أموال المصريين الموالين للخديوى عباس ممن نفوا خارج البـــلاد فاعترض عليـــه رئيس الوزراء المصرى وقتئذ حسين رشدى باشا مستندا الى القانون العام الذى ينص على أن الحراسة لا تفرض الا على **الاعداء** وفى زمن **الحرب** .

وحين عاود الجنرال اللنبى المحاولة عام ١٩٢٢ بالنسبة لسعد زغلول وصحبه اعترض عليه هذه المرة رئيس الوزراء الانجليزى نفسه لويد جورج !!

ولكننا عام ١٩٦١ بعد نصف قرن تقدمت فيه الدنيا ، فرضت مراكز القوى على مصريين الحراسة بشكل همجى للارهاب المادى والمعنوى . وجرى من المآسى والمخازى ما سجلته (لجنة الاقتراحات البرلمانية) التى تشكلت عام ١٩٧٢ .

هذا عن حرية العيش. أما حرية الرأى ففى عهد الاحتلال البريطانى نادى لطفى السيد **بالمصرية** ، ونادى طه حسين بحرية الفكر والتحلل من الغيبيات والهالات الصناعية نحيطا بها كل قديم لمجرد القدم حتى ولو كان صادرا عن غير أصحابه الظاهرين ... ناقش طه حسين الشعر الجاهلى فى عقلانية وانفتاح كما ناقش مستقبل الثقافة فى مصر ... ولا اريد أن اقول أن كل كلمة قالها صواب محض فليس هذا هو المهم ولكن **الهام والأهم هو مبدأ حرية الرأى والتفكير والقول والكتابة والنشر ...**

عبد العزيز فهمى وجد من نفسه وعصره ، **الشجاعة** ، على الجهر باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ... ومرة أخرى اقول انى لا أرى التصويب أو التهجين فى هذا الراى ولكنى أرى أولا حرية صاحبه فى اعتناقه والدعوة اليه .

على عبد الرازق تكلم والف عن أصول الحكم .

أمين الخولى تكلم عن مصرية الادب والتفسير النفسى للقرآن والبلاغة الحقيقية .

العقاد والمازنى انهالا على أدب التشريفات والمدائح التسولية وامتهان كرامة الانسان والفنان بالتبعية والتقامؤ والنفاق .

انهالا على النظرية العتيقة المقدسة « بيت القصيد » .

الدكتور منصور فهمى ، مصيبا أو مجانبا للصواب تكلم عن حرية المرأة فى الاسلام .

الدكتور احمد أمين تكلم عن أدب المعدة وادب الرأس والعقل ... وتكلم عن العامية وامثالها ومضامينها وجذورها ودلالاتها .

تكلم عن الحياة العقلية للعرب فى فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام بما يشكل موسوعة جامعة .

محمود عزمى والتابعى استنا السهولة والخفة والسرعة فى الكتابة ، والزيات دافع عن **البلاغة** ..

ارتاد الحكيم والمازنى وهيكل واضرابهم طريق القصة والرواية والمسرحية .

ترجم محمد بدران وزكى نجيب محمود قصة الحضارة .

نزل أحمد فؤاد « صاعقة » على الوان الفساد الموجودة فى أيامه وكأنها مسامير النديم ...

الف ابراهيم عبده (الطور فى متحف الخزف) .

صدرت فى حقل الثقافة ، مجلات البيان والرسالة والثقافة والهلال والمقتطف ولواء الاسلام .

لم تترك الرسالة بلدا عربيا الا دخلته بل لقد كانت المجلة الوحيدة التى يقرءونها ويكتبون فيها حتى لقد كان السوريون

يسمون يوم الثلاثاء الذى كانت الرسالة تصل اليهم فيه ، **يوم الرسالة** ، ولا يقول قائلهم يوم الثلاثاء ....

كما كان الاديب من كتاب الرسالة عندما يزور بلداً عربيا ، لا يميزونه باسمه بل بهذه الصفة فكان كتاب الرسالة فى هذه الظاهرة **كاهل بدر** .

كانت الكتابة فى الرسالة شهادة للكاتب ترفع من اسمه وتعلى بين الكتاب مكانه .

كانت الرسالة **مدرسة** ربت جيلا وربطت شعوبا ووصلت بلاداً ووثقت علائق ونهجت سبلا . كانت ريادة ومشعلا وسفارة لمصر لم تعمل عملها السفارات .

ومن الغريب أو العجيب أن الرسالة والثقافة اللتين ولدتا وعملتا بانفتاح ومقدرة فى ظروف عاصفة جثم فيها الاستعمار على حياتنا ، احتجبتا فى عهد الاستقلال ! : الرسالة فى فبراير عام ١٩٥٣ ، وقبلها « الثقافة » فى يناير عام ١٩٥٣ !!

وقامت بعدهما مجلات عدة تتعلق باسمهما تشبها ، أو لعله تبركا ولكن واحدة لم تغن غناءهما أو تعمل عملهما أو تقف وقفتهما .

لقد كانت الرسالة تخوض المعارك **معارك الرأى والوطنية** . وبعض هذا مقال الزيات المدوى (**فلاحون وأمراء**) على أثر اهانة الأمير عمرو ابراهيم لأحد الاعضاء المصريين بنادى محمد على ومقاله (**الامتيازات والدين**) ...

وحين فزع السادة امراء ذلك العصر ذهب جمعهم الى محمد محمود باشا رئيس الحكومة وقتئذ فنظر اليهم فى شموخه المعروف وقال لهم : انا معه بل ذهب الى القصر مهتاجا ..

وارتطم صاحب الرسالة بالقصر بعد هذا فى مقاله (**ليس بعد الدين وازع**) على أثر زواج فتحيـــة من رياض غالى ... وفزع القصر لولا أن توسط فى الأمر محمد حسن يوسف وكيل الديوان وقتئذ ..

وهكذا كانت الرسالة مجلة **أدب وثقافة ومبدأ وهدف وأسلوب وغاية** ...

والى جانب الرســـالة والثقافــــة كان مجـــلة (**الهلال**) تعنى بالتــاريخ ، و (**المقتطف**) يحتفل بالعــلم و ((**الكتاب**)) يحتفى بالأدب ، و ((**الكاتب المصرى**)) تعنى بالترجمة ، كانت هـــــذه المجلات تهتم بالفكر وكأنها الصورة الجديدة لمجلة ((**البيان**)) التى صدرت سنة ١٩١١ .

ماذا بقى لنـــا ؟

او ماذا عندنا ؟

عدمت الريادة يوم عدمت الحرية الداخلية وكانت موجودة بل سباقة محققة والحـــرية الخارجيـــة مكبلة ترهقهـــا انجلترا ، وتجرحها الامتيازات الأجنبية . اليس هذا عجيبا ومذهلا ؟

ومن الغـــريب اننـــا حـــين اطلقت الحـــريات **لـــم يوجـــد الكتاب الاحرار** لان الكتاب لم يتمرســـوا فى شبابهم بالحرية فلمـــا فتح بابها عليهم لم يفتح عليهم القلم بشىء !!

ماذا حدث ؟

تشرك كل شىء فى مصر أى صار اشتراكيا !! لا عن عقيدة اذن لساغ الأمر ولكن عن مداهنة.فأستاذ الاقتصاد كتب عن الاشتراكية.

وأستاذ التاريخ السياسى كتب عن الاشتراكية .

وأستاذ التاريخ الطبيعى **أيضا** كتب عن الاشتراكية .

والأدب كتب عن الاشتراكية .

حتى علماء الدين كتبوا عن الاشتراكية !

الكل التقط مانشيتات الصحف وراح يرددها فى ببغاوية مضحكة الضحك الذى يوصف بأنه كالبكاء .

تعادى السلطة أمريكا فتنسحب العداوة فى درجات السلم الهرمى على كل ما هو أمريكى حتى الفكر والثقافة مع أن الدين يقول بأخذ الحكمة ولو من أهل النفاق، وبطلب العلم ولو فى الصين.

وقبل هذا عادت الملكية ، الشيوعية ، فاذا بكل ما هو روسى ، منفر يثير الذعر حتى القصص على عالميته ...

رسمت **قومية عربية** ، فسار الكل وراءها يرددون كأنها حلقة ذكر غير انها لم يذكر فيها اسم الله أو اسم الوطن ...

مسخت حياتنا مسخا مشوها فلا هى الى الشرق ولا هى الى الغرب .. فصمت من الماضى وعزلت عن الحاضر .

غامت الرؤيا وانبهم الهدف

ان رواد الخمسين الاولى وأعلامها ، لو تأملنا مسيرتهم ، نجد أن فترة الخصب العقلى والابتكار عندهم فى أعمالهم ، كانت العشرين أو الثلاثين سنة التالية لفترة التحصيل أى التى تقع بين الثلاثين والستين .

فماذا صنع شباب الخمسينات من هذا القرن ؟ داروا فى الساقية أو انخرطوا فى الطاحون .

ضاع البريق .

لا راى يهز ، ولا فكر يجدد ، ولا ابتكار يرتاد ، ولا جدية تنال ، ولا اسم يتألق .

سادت **الوصولية والانتهازية والببغاوية والحرباوية ... وبالطبع الأمية .**

وكانت النتيجة أن ضاق كل شيء بكل شيء كما يقول نجيب محفوظ حتى الضيق ضاق بالضيق ...

وهنا لم يملك الأدب الا الرمز ليعبر عن تمرده أو يبرىء ذمته ولو بأضعف الايمان .

فماذا وراء الرموز ؟

فتح الأدب بنكا للقلق ... يقول توفيق الحكيم **« فى وعى »** ما من احد الآن فى حالة طبيعية لأن القلق منتشر بل سائد بشكل وبائى عند كل الناس حتى الذى يملك مائة فدان يعيش فى حالة قلق !

لماذا ؟

فى بنك القلق أكثر من جواب :

« ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

« كل انسان فى حاجة الى أن يتكلم وأن يصيح وأن يوافق وأن يعارض » .

« كل ما يخشاه — الانسان — هو أن يرغم على قبول شكل فى الحياة يسجنه » .

« أصبح الواحد منا يتخبط اليوم فى بحر واحد من قلق شامل لا يطاق » .

« — الانسان المصري المعاصر — يعيش فى مجتمع هش ليس داخله ايمان حقيقى بشىء أكثر من اقتناص المغانم ! » .

مجتمع برجوازى داخل قماط اشتراكى .

والشباب ... « الشباب أغرقوا أنفسهم فى كل بلاد العالم فى خبط الجاز والروك أندرول والخنافس وما شابه ذلك من الوان الضجيج والحركة العنيفة والأصوات المزعجة ! .. ليواجهوا خبط الكبار فى ضجيج الحرب والقمع والمؤامرات والمخابرات ! صخب عام فى حانة كبرى ، ضمت الكبار والصغار ... وان اختلفت أدوات الزياط وألوان الخمر ! »

بنك القلق اذن « مكان للتنفيس ... رئة يخرج منها الزفير الفاسد ! خير من أن يكتم .... هذه هى جوهر فكرة هذا البنك » .

وهدف بنك القلق (ترك الناس تتكلم ... أقصد اتاحة الفرصة للزبون يفضى بكل ما فى صدره .. يكشف عن بواطن نفسه .... عن أسباب قلقه ....) وقد تكلم توفيق الحكيم نفسه فى (شمس النهار) و (السلطان الحائر) ولو أن دور سلطان العلماء الشيخ عز الدين عبد السلام فى التاريخ أكبر وأرسخ من دوره على المسرح .

والفنان وسط هذا الزحام (هو الوحيد فى القرية الذى أدار ظهره لحركتها الدائبة ، وانفلت من المحاريث السائرة والنوارج الدائرة والسواقى **الناعرة** وذهب الى شط الترعة يقطع سيقان البوص ويصنع منها مزامير ...)

ولكن المزامير وحدها لا تكفى ... وقد أحس الفنان نفسه بهذا لأن الامة المطحونة لا يطب لها الغناء وحده ... بل انها

فى حاجة الى من يعيش مشاكلها وينفض همومها بالتعبير عنها وطرح علاج لها وتنفيذه ... ولهذا دخل الأدب فى مرحلة جديدة لم تخطئها **حتى عين العدو** فيما يقوم به من دراسات على الأدب العربى بعد عام ١٩٦٧ مما فصله كتاب الهلال « الأدب الصهيونى المعاصر » .

فى الستينات بدأت **القصة المصرية تتحول عن الواقعية الى الرمزية** وسفرت هذه الظاهرة بشكل خاص عند الروائى الأديب نجيب محفوظ الذى يمر الآن بمرحلة جديدة من مراحله الفنية .

نجيب الآن **مباشر** يركز على الحوار **المشع** بالأفكار الفسفورية التى تتواكب فى توال كطرقات المطرقة النشيطة فى أسلوب مدبب ألفاظه شوكية فى قصته (ثرثرة فوق النيل) .

هل بعد الضياع عذاب ؟ (فيا أى شىء افعل شيئا فقد طحننا اللاشىء) .

فى قصة نجيب محفوظ ظاهرة **هروب المثقفين** الذين يعون حركات التاريخ لا الى العوامة وحدها ولكن الى شريط التاريخ القابع فى رؤسهم . وهى ظاهرة ملموسة اليوم فى أدبنا القصصى والمسرحى — فيفرون محفوظهم أو يستعرضون الشريط كلما تشابهت المواقف أو الظلمات وكأن الأمر (توارد خواطر) .

فجمود الروتين وبلادته وتحجره فى غباء ، وعبثه فى لا مبالاة ، يورث الدوار . وفى (غيبوبة الدوار تختفى جميع الأشياء الثمينة ... من بين هذه الأشياء الطب والعلم والقانون والكلمات المشتعلة بالحماس) وفجأة يتذكر الانسان جرائم المماليك الذين كانوا (يطلقون اللحى ويثيرون الغبار ويفرحون بالأبهة والتعذيب) .

ولكن البغاة راحوا ... انداحوا ... وبقيت مصر .. مصر البسطاء الذين يقومون بالأعمال التى تبدو بسيطة وهى فى الواقع

ملاك الأمر وسره . فهى كالعوامة والرجل البسيط كعم عبده هو **كل شىء** .. انه العوامة ، لأنه الحبال والفناطيس واذا سـها عما يجب ، **لحظة** ، غرقت وجرفها التيار .

ما هى الأسباب التى حولت طائفة من المصريين الى رهبان ؟ والسـؤال هنـا اسـتقطب الزمن ليصـل الى مصر المسيحية حين اليأس من عدالة الارض والليذ بكنف السماء ثم الصحراء

فى القصة عملية تشريح **الأخلاق والسمات والأقنعة الخارجيـة** التى سقطت الواحد تلو الآخر فى قاع النيل .

ففى القصة **سـخرية من المظـاهر** والاطارات والشـعارات والتقاليد .

سخرية من سقوط الفلسفة .

سخرية من التمثيليات الهادفة .

سخرية من موقفنا من الأحداث وكأننا (أحمد نصر) أو عـم عبده الذى يطـل على المعمعـة من أعلى البرافان على سـبيل الفرجة أو التسلية .

سخرية من **النفاق** .

سخرية من لويس السادس عشر الذى لا يدرى شيئا عما يدور فى الخـارج .

سخرية من الغزاة الذين **يتحلون** بقسوة حادة كالدرع .

سخرية من الهاربين من لاشىء الى لا شيء والمقتولين بالسـم البطىء والقاتلين على السواء .

سخرية من **المخبرين** الذين يراقبون **المفيقين** لا المساطيل .

سخرية من **المتعالمين** (ذرية علماء النحو) .

سخرية من (أخذ الأصوات فى ديمقراطية دامية)

سخرية من الخوف من كل شىء حتى يغدو صاحبه لايخاف شيئا .

سخرية من **العوامة** التى تشيع فيها النكتة كحركة تغطية نفسية ثم تنعدم حين تصبح الحياة فيها نكتة سمجة ، أشنع تهمة فيها هى **الرجعية** . فكل قلم يكتب عن الاشتراكية (على حين تحلم أكثرية الكاتبين بالاقتناء والاثراء وليالى الأنس فى المعمورة) .

ضاق كل شىء بكل شى حتى الضيق ضاق هو الاخر بالضيق .

وفى زحام (الثرثرة) **تبرق** هذه العبارات :

(ان السفينة تسير دون حاجة الى رأينا أو معاونتنا وأن التفكير بعد ذلك لن يجدى شيئا ، وربما جر وراءه النكد وضغط الدم)

— (نحن نعيش فوق الماء فنهتز لوقع أى قدم) .

— (ليس الانجليز وحدهم الذين يقتلون بالسم البطىء) .

— (راحوا يتساءلون عن كيف يبدأون ، وكيف ينظمون أنفسهم ، وكيف يحققون الاشتراكية على أسس شعبية ديمقراطيه لا زيف فيها ولا قهر)

— (تدارسوا) العراقيل المتحدية ، والأخطار التى قد تحيق بهم كمصادرة الأرزاق والاعتقال والقتل) .

— (الخيام الذى كان مدرسة أمسى فندقا للملذات) .

— (أيها الحكيم القديم « ايبو — ور » أقدم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شىء الا الشعر وأسمعنا الغناء . حدثنى ماذا قلت لفرعون . أقبل الحكيم « ايبو — ور » وهو ينشد) :

ان ندماءك قد كذبوا عليك

هذه سنوات حرب وبلاء

قلت أسمعنى مزيدا أيها الحكيم ! فأنشد :

ما هذا الذى حدث فى مصر
ان النيل لا يزال يأتى بفيضانه
ان من كان لا يمتلك أضحى الآن من الأثرياء
يا ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت

قلت ما ذا قلت أيضا أيها الحكيم (ايبو — ور) فقال :

لديك الحكمة والبصيرة والعدالة
ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد
انظر كيف تمتهن أوامرك
وهل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة .

نجيب محفوظ الآن يلتزم قضية شعبه يحس بضغط همومه ويعبر عنه ففى قصة « ميرامار » عالج انتفاض البسطاء المطحونين — من خلال زهرة — الذين يعيشون مع الغالبية فى أيام (مندوته من العسر والصخر) . «الأيام التى تسبق مباشرة يوم القيامة » . . .

كشف الادعياء فان كثيرين من محترفى السياسة والاهمية والمشغولية كسرحان البحيرى (لا يعرف الفارق بين الوفد والنادى الأهلى) . . . كسرحان لا يهتم فى فى أعماقه بالسياسة رغم نشاطه الموفور فيها أو كشعبان بنك القلق (اشتراكى ماية فى المـاية ! وان كان بينى وبينك لا يعرف ما هى الاشتراكية) .

نفاق ممتع كما يقول نجيب محفوظ او (اشتراسمالى) كما يقول الحكيم فى « بنك القلق » . . .

والأجيال عند نجيب محفوظ فى « ميرامار » متواكبة فهى يكمل بعضها بعضا ولولا الجيل السابق لما تحقق للجيل اللاحق وجود ...

وهو مذعور من فكرة مصادرة الثروات لأنه يؤمن بأن من يقتل مرة قد يعتاد القتل ...

ان الجنة عنده (هى المكان الذى يتمتع فيه الانسان **بالأمن والكرامة** أما النار فهى ما ليس كذلك) .

وحين تغيم فى عينه الأشياء يتساءل :

« البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء ؟ والشمس تهوى الى المغيب مرسلة شعاعا ماسيا يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم ؟ والهواء يلاعب سعف النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات شفافة رقيقة فأين **الرياح الهوج المزلزلة** ؟ » .

ان التوازن كما يقول (لا يرجع الى الأشياء الا بزلزال شامل)

(اننا نتدهور معا بأكثر مما تصورت لكننا سنخرج من التجربة كالمعدن النقى ....

واعطى نجيب محفوظ هذه الفترة (اللص والكلاب) ، (والسمان والخريف) ، (أولاد حارتنا) ، (تحت المظلة) وقصته القصيرة (الطبول) طبول الرحلة العقيمة والمستفيضة وأخيرا (الكرنك).

وفى السبعينات أخذ احسان عبد القدوس ينتمى الى مدرسة نجيب محفوظ الرمزية ... مدرسة ثرثرة على النيل ، و (ميرامار) و (روبابيكيا) ... بدأ يخدم الرمز شفافا وكثيفا فى قصة « رصاصة واحدة فى جيبى » ومسرحية (لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص) .

مصر عند نجيب محفوظ فى قصـــة روبابيكيا مطمـــح الجميــع ومطمع ولكنها فى النهاية تسحقهم وتحيلهم الى حطـــام ملقى ى عربة روبابيكيا ، وتتخطر هى على النيل جميلة مشرقـــة متألقـــة شبابها أخضر، دائما وعودها ريان .راسها شامخ وجمالها فتان.. محاسنها تغرى وتسبى ولكن الويل لمن تحدثه نفســـه بالاقتراب منهـــا .

ومصر عند احسان (١٩٧٢) هى فاطمة الطيبة الجميـلة فى الثوب الأخضر ... وميمى السمراء الحلوة (أجمل واحـــدة فى الدنيا) التى لا يكفيها جمالها ولكنها تبحث عن جمال عقلها وجمال ارادتها ... انها تريد أن تتبدى كمـــا خلقهـــا الله بصباحتهـــا كلها ... بحلاوتها كلها .... بنفاستها كلها .... تعطى الحياة ما تريد ... وتأخذ منها ما تختار لا يطرف عينها شىء ولا يعلو وجهها نقاب **أبيض أو أحمر** ...

تريد أن تسير فى طريقها **هى** التى تعرفها لا تلتفت الى يمين أو يسار لأنها قبل اليمين وقبل اليســـار ، بألوف الســـنين ، لهـــا **مسار .. ولها اسلوب شخصية .**

وتستطيع أن تعرف فاطمة من **نوعية** حب المؤلف لها ..... انه ليس حبا خاصا يتعلق به وحده .. انه حبنـــا جميعـــا لأن فاطمة **هى مصر** ...

(فاطمة حبيبتى ... انك لا تستطيع أن تتصور مـــدى حبى لفاطمة ، ولا كيف احببتها . انه حب تضعف أمامه الكلمات ... بل أن فاطمة وأنا لم نكن نتصور ان ما بيننا اسمه حب ... انه احساس ولدنا فيه ... انه الحياة نفسها ...) .

هل هذه فتاة محددة ومحدودة ؟ لا ... انها **حـــلوة الأبد** فى قلب كل مصرى . انها جميع الفتيات وجميع الفتيـــان .. جميع

الرجال .. جميع الاطفال ... انها الحياة نفسها .. انها مصر...

أما الشعب المصرى فى القصة فهو (طالب الفلسـفة) الطيب الهادىء الذى يعشق السلام والاحلام والخيال . فهو يحلم دائما (بالمخلص).ولهفته عليه تجعله يتعلق بكل بارقة أمل تلوح . فما يكاد يرى (عباس) شابا مثقفا هادئا مبتسماً دائماً حتى هلل له وكبر وتوسم فيه الخير كله ... وتسلل عباس شيئا فشيئا حتى أصبح المشرف الزراعى المسيطر على الجمعية التعاونيـة ... المفتش .... والجمعية التعاونية هى السـلف الزراعيـة وهى الكيماوى وهى المبيد وهى التراكتور أى أبواب الرزق جميعا ...

ومع هذا أحبته القرية ... وأحبته فاطمة (بأحلامها البريئـة وبالخرافات التى تملأ خيالها عن صور المستقبل السعيد) .

ولكن فاطمة بعد أن استولى عليها عباس غدت بلهاء ... فى عينيها مأساة.تقف كأنها على حافة بئر تكاد تقع فيها ... فاطمة الجميلة الحلوة الهادئة أصبحت فاطمة الحائرة وجههـا مـكدود وقلبها مهدود ، وكرامتها مثخنة بالجراح ...

ويتساءل صاحبها الحقيقى الذى يحبها أغلى الحب وأصدقه :

(كيف أعيد اليها شبابها ، ولمعة عينيها . كيف اجعلها ترتدى الثوب الأخضر الجميل الذى احببته عليها دائما .... كيف ؟)

ومصر فى مسرحية (لا اسـتطيع أن أفكـر وانا ارقص) هى الراقصة ميمى .... انها كالطير يرقص مذبوحا من الالم .. وميمى مجروحة نصف مذبوحة طارت ذراعها ونزف دمها ويريدونها على أن ترقص ويتجاذبونها ناحية اليمين وناحية اليسار وبينهمـا من البعد والتناقض ما بين المشرق والمغرب ولكنهما **يتفقـان على امتصاصها**.وتشقى وتتمزق **وتقف لتسقط من الداء والأعياء والمرارة واحساس الضياع والقهر** . ولكنهم جميعا يرتدون من عذابها وعطائها

(جاكتة مذهبة) حتى « مجاهد » خرج من عندما يرتدى هــذه الجاكت على البنطلون المهلهل الذى كان يرتديه . ويسير فى عظمة وفخامة كأنه أصبح رجلا مهما) .

انهم جميعا وعودهم لها هباء ، وقلوبهم خواء ، وعينهم مسعورة لا تمتلىء من جمالها وجسدها . وهى لا تطيقهم ما تكاد تقترب منهم حتى تحس لهم فحيحا تنفر منه السمراء الجميلة (اجمل واحــدة فى الدنيا) التى تقطر عسلا وشهدا ... ولكنهــا تعرف انهــم يمصون عودها وتخشى أن تصير (تفلا) ... انهــا لا تصدق دعواهم الكاذبة . انها لا تريد ذهب هؤلاء ولا مدفع هؤلاء ولا حتى قنبلتهم الذرية ... هى تريد أن تحمى نفسهــا بنفسهــا وتعلى نفسها بنفسها .. (اللى أقوى منى سيدى ... نفسى اعيش من غير سيد) . وحين يوقن « مجاهد » من رفضها أنفسى له . يحاول أن يتفق مع فؤاد (المطبلاتى) الذى لا يصدقها النصــيحة بل يريغ لها من النغمات ما ترقص عليه رقصة الذبيح .. . فؤاد الذى (ينقر على طبلته) أى (ايدلوجية) حتى ضيعت طبلته الجميلة السمراء ، التى قذفت بها على الارض وحطمتها . لانها غررت بها وخدعتها ، وشغلتها عن البناء الحقيقى ، حتى داهمتها الطائرات والدبابات ، وراحت فى الحرب ذراعهــا . وتخلى وجوها الاسمر بالدماء ...

ويتساءل المؤلف :

(يا ترى نبتدى نضرب اللى ضرب ميمى والا ناخد ميمى ونرجع الكباريه الاخضر ؟) .

واقــول :

ابدا لن ترجع الجميلة السمراء الى الكباريه ... ستعود الى **الوادى الأخضر تزرع وتبنى وتصنع وتمجــد العلم وتبــدع الفن**

وتشكل الحجر وتطعم الخشب وتخوض المعركة أيضا ... ستعود الى الوادى الأخضر ترفع للسلم صروحا ، وللبطولة رايات ...

وفى مجال الرمزية كتب الدكتور يوسف أدريس قصصه : « حامل الكرسى » و « الرحلة » و « وسنوبزم » ...

وكما رمز نجيب محفوظ الى الشعب المصرى ببواب العوامة الذى لا يعرف أحد بدايته أو نهايته ، والذى لا يحسب حسابه المتسلطون الناعمون فى العوامة ، وفى قبضته حياتهم ... فى استطاعته أن يفك الحبل فيغرقهم .... ، رمز الدكتور يوسف ادريس الى الشعب المصرى **بحامل الكرسى** الذى يتعجب الناس من قوته وهو بادى الضعف ... ضعف الجسم .

وقصة الدكتور يوسف ادريس « الرحلة » مملوءة بالرموز الشفافة حينا والكثيفة أحيانا أخرى ....

والدكتور يوسف ادريس فى قصته « سنوبزم » رمز الى مصر بالسيدة العفيفة التى تركب الأتوبيس بين أهلها وناسها فاذا بهذا يتحرش بها أثيم ويسىء اليها ، ويحاول أن ينال من وقارها ، بل يحاول أن ينال من عرضها ! والناس يرون ويتعامون ، أو ، (يفوتون) أو يمالئون الظالم ! وعند هذا الحد انبرى أحد الركاب وهو **دكتور فى الفلسفة** (رمز المثقفين) واخذ يهاجم هذا الوضع الشائن فسلقوه بالسنة حداد ولكموه لكمة تورمت منها عينه وقذفوه خارج الأتوبيس !!

وما اكثر الذين قذفوا خارج (الأتوبيس) .

❋ ❋ ❋

هذا فى الادب اما الصحافة فقد غدت صحائفها كفصل (البلدا) كل ينقل من السبورة (**السوداء**) ما كتبه (المعلم) بعد أن كانت الصحف كساحة البرلمان ميدانا للمناقشة والمعارضة .

تناولت الصحف يوما مرتب وزير العدل ويقرأ عبد العزيز فهمى عناوينها وهو فى طريقه الى الوزارة فيغير وجهته ويأمر سائقه أن يتجه الى قصر عابدين وهناك قدم استقالته الى الملك فؤاد قائلا :

ــ كرسى العدالة يهتز من تحتى .!

ولكن جميع الكراسى ظلت ثابتة لم يقلقها شيء حين عزلت مراكز القوى القضاة بالعشرات ودفعة واحدة لانهم طرحوا رأيا فى عريضة .

ماذا يجدى سد أسوان أمام **سد الخوف** ؟ ان الانسان المصرى لم يبدع حضارته فى أى عصر الا **حين تحرر من الخوف ...**

لقد قامت الدنيا فى مصر وقعدت يوم قدم رئيس ديوان المحاسبة محمود محمد محمود استقالته لأن حقه انتقص فى مراجعة ميزانية الدولة .. وقامت الدنيا وقعدت يوم أجرى الملك فاروق تصليحات فى اليخت فخر البحار ، وناقشته الصحافة والبرلمان علنا لأن تجديد اليخت سيتكلف آلاف الجنيهات فماذا فعلت الصحافة مع مراكز القوى يوم ضاعت آلاف الملايين ؟ أصابها الخرس بل ان بعضها وجد فى نفسه الجسراة ، ولا أدرى كيف ، فحاول التغطية أو التبرير بصورة فاضحة !

هوان وصغار .

لم تعد هناك صحافة سياسية

ولم تعد هناك صحافة اجتماعية .. وغدا الكتاب :

كاتب صومعة وهؤلاء قلة يحتاجون الى صبر الرسل ليطيقوا العزلة والتقشف والمجاهدة .

وكاتب حر يلوذ بالرمز .

وكاتب حرباوى ببغاوى وهؤلاء كثرة لأن مهمتهم سهلة وثمنهم رخيص ..

كانت الصحافة ، صحافة أحزاب نعم .. ولكنها كانت صحافة رأى فى الوقت نفسه .. أما صحافة اليوم فهى صحافة مذاهب وموجات .. أو **كتابة على ظهور الاعلانات .**

بين يوم وليلة تصطبغ ادارات الصحف باللون الأحمر وتنغمس الأقلام والحروف فى هذا اللون ثم تنحسر هذه الموجة وتضيع فى غيابات اليم أو السجن ليأتى مد موجة أخرى بيضاء .. وتقترب مراكز القوى أثناء هذا من دولة ، وتناصب العداء دولة أخرى فتتعاقب تبعا لهذا ، الموجتان وكأنهما الليل والنهار ...

وتمذهب تبعا لهذا الفكر وعلاقات الناس ، بل بلغ الأمر أن الادب ائتسم بالميثاق !! كأنه فرغ من قضاياه كلها ، وكأنه نال منه الجهد من كثرة الخلق والابتكار فتخفف من مهامه الكبيرة ليؤلف كاتب عن **مفتاح الميثاق !** .. وما دامت مكتبتنا المصرية العربية تعتز بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، فان كدابى الزفة ، امعانا فى التقديس الأبيسى ، وضعوا معجما لألفاظ الميثاق !! أو مفتاحا ... ولا أحسب أن أحدا طلب منهم هذا .

وامتلأت الشوارع بلافتات القماش المكتوب عليها عبارات الميثاق لتأخذ على الناس طريقهم .. ولم يفكر أحد فى كتابة أو تعليق آية واحدة من القرآن الكريم حقا .. كتاب الله .

تحتمس بلا امبراطورية وأحمس بلا انتصارات .

والتصق بنا النفاق حتى سلمنا به . فنجيب محفوظ يقول على لسان أحد أشخاصه (يا أمة عريقة فى النفاق)

درس الميثاق فى جميع مراحل التعليم لا تستثنى من هذا الجامعة حتى كليات الطب والعلوم وكأننا نسهم به فى التكنولوجيا الحديثة بل درس الميثاق فى كلية أصول الدين !!

وحفظ أطفالنا فى المدارس :

أنا عربى   أبى عربى ...... الخ .

فنفر المصريون الصادقون من **دعوى وادعاء** القومية العربية **لا لعيب فيها أو بغض لها** ولكن **للأسلوب الذى يمس تاريخ البلد** وفى الوقت نفسه لم يصدقنا العرب بل رأى فيها البعض غرضا خبيئا ... لم يصدقنا العرب ولم يحترمونا — لأن الذى لم يحترم مصره أى شرفه وعنوانه مارق أو رخيص .. وكان العرب يحترموننا قبل هذا ويحبوننا لذاتنا وباعتبارنا مصريين .

قابلنا عربيا كبيرا على الباخرة اسبريا فقال فى معرض حديثه عما فقدناه من أرض فى البلاد العربية : (كان العربى منا يحلم بأن يكون له **مربط معزة** فى القاهرة .. وكانت الارض عندنا تعرض بعشرة قروش للمتر فلا تجد مشتريا .. الآن لا يفكر أحدنا فى ادخال ماله القاهرة ... وقد ارتفعت الأرض عندنا فبلغ ثمنها مئات الأضعاف !) .

كم فقدنا ليثرى الآخرون ويعمروا ويركبوا ظهر الموجة التى عميت عن الأعماق، الزاخرة من رعونتها .

كانت نساء مصر كظباء مكة صيدهن حرام . فاذا بآلاف من نساء مصر يدفعهن ذل الحاجة وقسوة الحياة فى وطنهن الى الخدمة أو الى ما هو شر من الخدمة مما ترغمهن عليه ، وتمرغهن فيه ، ملاهى بيروت .

خطب ملك الحيثيين يوما الى فرعون مصر ، **أميرة** مصرية ، **تقربا اليه**،وكسبا لرضاه. فلم يكتف ملك مصر بالرفض ، بل ثار ثورة عارمة كيف يتجرأ غير مصرى على **التطلع** الى الزواج من مصرية !

من عزة القوة ، وعز الجاه ما فعل ...

آه لو كان يدرى بمن تزوجوا المصريات رقيقــا ، بغير عقـــد مكتوب !

وفى غمـــرة هـــــذا ألفت الكتب عن عــروبة مصر فكانت بمحاولتها اللاهثة اثبات دعواها ، **تنفيها لا تؤكدها** بما تكشــف من عملية الافتعال لأن البديهيات لا تحتاج الى اثبات . والشاعر العربى نفسه يقول :

وليس يصح فى الأذهان شيء   اذا احتاج النهـار الى دليـــل

وفى هذا الصخب، **لم نقرأ بالطبع كتابا واحدا عن عروبة الحجاز** لأن النهار كما قلنا أو كما قال الشاعر ، لا يحتاج الى دليل .

وتجاوزت هذه الدعوى الاغراض السياسية الى الكتب المدرسية بدءا من المرحلة الأولى الابتدائية ليحفظ الطفـــل المصرى مع (أنا عربى أبى عربى) ، خزعبلات أخرى عن أصل الشعب المصرى ! مع أن الكتب العربية تتحدث عن العرب العاربة والعرب المستعربة كما تتحدث عن (فتوح البلدان) .

مهما جهدت المواربة والمعانى المتداخلة ، فان الحقيقة التاريخية لا تتغير ولكن يمكن درسها وتقييمها تقييما صــحيحا ... **فتــح** العرب مصر ولكننا اذا تخطينا (حتة) الفتح بظروفه وملابساته ، وجدنا أن الفتح العربى بعد تاريخى أو ســياسى ولكن الحـــرب الرابعة بيننا وبين العدو الحقيقى ، اسرائيل ، علمتنا أن المنطقة **لها بعد ميتافيزيقى .**

ان الأديان محلية .

والسياسات زمنية .

ولكن المنطقة لها منطق واحد وهو أكبر كثــيرا من ســائرـ

المحليات . لقد تكلم الهواة كثيراً عن القومية العربية ثم عن قومية المعركة ، والخلافات تنمو وتترعرع على رنين الخطب البلاغيــة أو العامية فلما جدت الحرب ، ولدت لساعتها القومية العربيــة وقومية المعركة **معا** فى ساحة النضال ، مما أذهل العالم بل ادهلنا نحن أسرة المولود.وتأكد صدق الطائى فى فتح عمورية وتبين حقــا أن السيف أصدق أنباء من **الكتب والخطب** .

واتضح للغيورين ما وضح للمشايعين أن المنطقة **كل** واحـــد تختلف أجزاؤه اختلافا كبيرا أو صغيرا كما تختلف الاعضــــاء والوظائف فى الكائن والكيان .ولكن الروح واحدة لا حياة للجســم جملة وتفصيلا الا بها ...

يكفى آصرة الدين واللغة والالم والامل ، **بعد الجــوار** لنلتقى جميعا على **المحبة والمصلحة** فى وقت واحد .

ان مصر تخسر الكثير بدون البلاد العربية

والبلاد العربية تكسب الكثير بوقفة مصر معهـــا : **الكلمــة ، والمكانة والوزن السياسى والحضارى وكفاءة العلم والفن وهى قيم** اكبر كثيرا من أموال الدنيا .

ان الذى يحب مصر **بوعى** ، يحب جيرانها ، لأمن مصر ان لم يكن لذاتهم ... ولكن (ذاتهم) تستحق الحب والاحترام والشكر بما **أدوا وما بذلوا** فى نبل وذكاء معا وبلغوا الغاية فى الأداء والوفاء .

* * *

وفى هذه الغمرة حاول المنافقون اســقاط المــاضى ، امعــانا **منهم فى تعظيم الحاضر** ! . وفاتهم ان طبيعة الاشياء تنفى وجودها من العدم.وفاتهم أكثر أن انسانا بلا جذور ، **لقيط** معنويا وتاريخيا وحضاريا . ولكنهم أرادوا **أمة التاريخ بلا تاريخ** حتى يقترن ميلادها

بظهورهم على مسرح الأحداث وان كانت الرواية ملهاة هزلية يأباها الطروح . أو مأساة دموية تقشعر منها الأبدان .

وفى مواكب الأردية الصفراء والحمراء، وخفافيش الظلام والملتاثين والملتحين و(صراصير المستنقعات) و«أشباح النهار». فى هذا الموكب الفوغائى أحس كل ذى قيمة بالاغتراب النفسى والزمانى فهاجر الكثيرون الى الخارج وكانت مصر وطن من لا وطن له . ونشطت أمريكا فساعدت على الهجرة أو الاستنزاف العقلى والكيانى باغراء المال .. وكم من طاقات وقدرات ضاعت من أيدينا.

يقول الفنان حسين بيكار :

(قد انتقلت عدوى الهجرة من العلماء الى الفنانين وهذه ظاهرة قد تكون صحية لو كان لدينا فائض من الكفاءات نصدره للخارج. والطيور لا تهجر أوطانها الا عندما تهاجمها الثلوج فتضطر الى تطع آلاف الأميال بحثا عن الدفء لتبنى هناك أعشاشها) .

حتى المبعوثين رفضوا العودة ! .. حتى الجامعات التى نضبت ولم تشهد منصاتها خلفا للرعيل الأول ، رأت الهجرة هى الأخرى فهجرها المتميزون الى الشرق أو الغرب بل هجر أستاذ جاد معطاء الجهد والعقل كالدكتور جمال حمدان ، الجامعة الى العزلة ايثارا للانتاج بلا تحطيم .

هرب الكتاب المصرى الى بيروت حيث تجارة النشر والتوزيع الحر .. وما بقى فى مصر اغتصب اغتصابا وزور وحرف اعتمادا على سلحفاة الروتين فى مصر التى يقف أمام سيادتها ، الناشر المصرى مع الطابور الطويل ... والى أن يأتى عليه الدور فى طابور الورق ثم فى طابور التصدير ثم فى طابور النقد ، تكون بيروت أخذت حريتها وراحتها فى استغلال الكتاب المصرى ،

والربـــح ، والاثراء من ورائه ، وأصــــحابه فى مصر تكـــاد تذهب أنفسهم حسرات .

وإذ هرب الكتاب المصرى الى بيروت ، **هرب الفــكر المصرى الى الكويت** حيث يتجرر ويحرر مجلة (العربى) ومجلة (الفكر) ! وكانت مصر تربة الأحرار والأفــكار والحضارات . تهب حركات التحرير فتؤازرها مصر بالتأييد والتوجيه والاذكاء .ويمتحن الأحرار فيتطلعون الى اللياذ بمصر ، وفيها تحلقت حول جمال الدين الإفغانى الندوة . واليها قصد الكواكبى .. وبها اتصلت حياة الأحرار ، وأسباب أصحاب الدعوات .

أن مصر وهى محتلة فى أواخر القرن التاســـع عشر لم تكتف بالدعوة الى الحرية السياسية فى الداخل بل امتدت بها فى المنطقة فالتف السوريون ١٨٨٥ حول الشيخ محمد عبده (يتلقون عنـــه دروس العلم والحكمة والخير) ، كما يقول الدكتور أسعد أطلس .. وأحدث الشيخ محمد عبده فى بيروت (إنقلابا عظيما) .

بل ان بعض الدعوات السياسية فى بعض بلاد الشرق يخطط لها فى مصر . اذ قبل أن تولد الباكستان كان رجالها يلمون بالقاهرة ليضعوا الخطط لتحرير بلادهم . وليس إلى الشك من سبيل ، أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قـــد كتب فى مصر .. وفى مصر كتبت فصول من قصة تحرير اندونيسيا ... وكذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا .

كما قامت فى مصر **الدعوة الى الاصلاح الدينى** على يد محمـــد عبده والمراغى .ومن مصر نبعت الدعوة الى تحرير المرأة اضطلع بها قاسم أمين وتبعه الزهاوى فى العراق .

فاذا تجاوزنا العصر الحديث ، وأوغلنا فى التقدم بضعة قرون ، نجد أن مصر بعد غارات المغول والتتار فى الشرق ، وحركات الافرنج

فى الغرب (اسبانيا) ، كثرت الرحـلة الى مصر **وتجمعت للحركة الفكرية فى القاهرة .**

وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهـم والتى اعتمد عليها العرب فى تكوين شخصية حضـارية لهـم ، **حفظت مصر فى هذه الهزات تراث العرب الأدبى والفنى ..**

* * *

وكما يرتص الطير مذبوحا من الألم ، انطلقت الاغانى فى بلاهة، تأخذ دورا فى (الزفة الكدابة). ولا مانع عندهنا من التمسح بالفلاح والعامل . . وما كسب الفلاح والعامل كسبا جذريا وخاصة الفلاح، فالاصلاح الذى لا ينبع من نفـوس أصـحابه وبيئتهـم ... **من داخلهم** ، لا يؤمنون به ولا يتعمقونه لانه من خارجهـم لم يغـير نوعيتهـم . . . والـدواء عـادة ، حتى ولـو حمـل الشـفاء كـريه أو ثقيـل على الاقـل ... وقـد فصـل هـذا طبيبنا أنور المفتى فى بحثه القيم فى مجلة (المجـلة) التى اختفت فيما اختفى من قيم فى حياتنا ... ويزيد رجال الاقتصاد أن ما أخذه الفلاح باليمين من الاصـلاح الزراعى بددته باليسـار مجموعـة التعاونيات الزراعية .

ولم تقصر السينما فى هذا المضمار فتخصص بعض مؤلفيها فى تسجيل الأمجـاد فى أفـلام يعاد عرضـها مرارا كأنهـا مقـررة على النظارة .

أما المسرح الذى نهض فى الثلاثينات والاربعينات نهضة كبـيرة ونشط أيضا فى الخمسينات فانه بعد نكبة الأمة العربية سنة ١٩٦٧ أخذ طابعا سياسيا حتى أنه أشرك الجماهير فى العرض باعتبارها متضامنة فى المسئولية عما يحدث . أو تأكيدا لمسئوليتهـا خارج المسرح بعد أن ينتهى العرض .

وانبثق عن نكبة عام ١٩٦٧ ، المسرح الغاضب أو مسرح الغضب الذى دعت اليه مسرحية الكاتب السورى سعد الله ونوس : (حفلة سمر من أجل حزيران) .

***

منذ اعتنقت مصر الاسلام وهى حصنه الحصين ولكن الاسلام فى مصر فى هذه الحقبة استحدثت باسمه هيئات كما كان المماليك يكثرون من بناء المساجد تكفيرا عن خطاياهم أو تغطية لها وما كان المسجد مبنى ولكنه معنى ونقاء ينهى عن الفحشاء والمنكر .

وصدرت عدة كتب دينية كتبها أساتذة مختصون فى الدين . ولكن التخصص المدرسى غير التحليق الثقافى فالعقاد حين كتب عن الاسلام كانت كتبه (التفكير فريضة اسلامية) (حجج الاسلام وأباطيل خصومه) ، (ما يقال عن الاسلام) ، العبقريات خاصة (عبقرية محمد) و (عبقرية عمر) . ناقش العقاد الغرب ومستشرقيه وناقش القضايا التى يظن بها الضعف ، فى مواجهة يحجم عنها الكاتبون ، فكان التصدى طريق الاقناع .. وهو طراز لم تستشرف اليه أو لم تقو عليه الكتب الحكومية الاسلامية فلم تعمل عملها فى أندونيسيا التى استشرى فيها التبشير وهى منطقة من مناطق الاسلام بتعدادها الكثيف .

كيف تدهور كل شيء ..؟ أى حفرة تردى فيها كل نفيس فى حياتنا؟ وضعت مراكز القوى نظرية أهل الثقة وأهل الخبرة التى تقسم الشعب الى مدللين ومتهمين .. وهذه النظرية تطرد نظرية الرجل المناسب فى المكان المناسب . . أو تحرفها **فتكسر الميم** وتكسر معها مبادىء الحق والعدل والكفاءة فاذا بأهل الثقة ، فى أحسن حالتهم ، حراس على المواقع التى وضعوا فيها لايعرفون مخبرها أو جواهرها . ولكى يغطوا جهلهم ، يدعون العلم أو الاهمية !

أهم من أشخاصهم وما فعلوا . هل المال يزيد بالحراسة أم العمل لا قصاري الحراسة أن تجمده ولكن العمل يحييه والخبرة تنميه . . وهو ما حدث لنا فالمال العام أما نهب أو تجمد وتجمدت معه الافكار والرجال الخبراء ، لان الخبرة متهمة وغير موثوق بها وغير مرغوبة .

• وفى غيبة القانون وخيبة الصحافة ، كل شىء ضاع .

ليس معنى هذا أن أهل الخبرة جميعا أطهار ابرار .. بل من أهل الثقة من أغنى فى موقعه ما لا يغنى غناءه ، أحد من قبل وخاصة أصحاب الثقافات ممن اجتمع لهم مع الحزم ، العلم وسعة الأفق ولكن ليس على الشاذ قياس . فالمنطق السليم يقول **أن البلد للجميع ، وأن الثروة البشرية الممثلة فى الكفاءات أساس نهضة الامم** ... وأن التقدم لا يتحقق الا اذا كان كل شىء **محسوبا** . فالانسان الصحيح فى المكان الصحيح . وللقانون وحده أن يحاسب المخطىء وحسابا عسيرا رادعا له ولغيره .. .. وفى حرية الصحافة ضمان يكشف الانحرافات ...

ولا أدل على هذا من ٦ اكتوبر .. هل كان يستطيع مدنى أن يخطط للمعركة ويديرها ؟

هل يستطيع مهندس أن يجرى عملية جراحية ؟

لكل مكان انسان لا يملؤه غيره .

وفى أثناء هذه المحن استردت القناة وازدهانا يومئذ الفرح والزهو . وكان هتافنا طوعيا هذه المرة . ولعلها المرة الواحدة والوحيدة التي برىء فيها قولنا من الخوف . أو النفاق . ولكن فرحتنا لم تدم طويلا اذ تبينا أن القناة بدخلها الكبير لم تصب فى ريفنا الذي حفرها وسقاها بدمه ، وانما صبت فى جبال

اليمن الوعـــرة التى اخـــذت مـــع المـــال ، الرجـــال ... بعـــد ان البنا علينـــا الشرق والغرب . وصورت النكتة المصرية بذكائهـــا المشهود ، الجولة بمرارة تقطر دما حين أطلقت بدورها هذا الشعار (مصر . يمن . كوبا) وكانت مصر منكوبة بحق . كانت منكوبة بالفشل والهزائم ولم ينتصر (أسميا) الا المؤسسات والشركات التى أطلق عليها (النصر) .

لم يفكر أحد فى الانتفاع بدخل القناة فى تعمير الضفة الشرقية للقناة .. أى تعمير سينا مصدر الخطر ودرع الامان فى الوقت نفسه .. ولو عمرت سينا (بفيض) و (فضل) الكثافـــة السكانيـــة فى الوادى ، وقام عليها البيت ، وفيها الولد ، لعز التفريط فيهـــا لأن الدفاع عنها عنـــدئذ دفـــاع عن العرض والأرض ، والرزق والحياة .. لو عمرت سينا لمـــا اجترأ العدو على اجتياحها ... واكتساحها مرتين فى هذه الحقبة المباركة .

لو كان عندنا مراكز دراسة نصرف عليها لعرفنا ان انجلترا عملت طويلا على فصل سيناء عن مصر بالايحاء وبالفعل منذ عينت عليها (براملى) حاكما عسكريا مما يدل على خطر سينا بالنسبة الى مصر ، وعلى أن سينا مطمح ومطمع للآخرين . ولكننا ضيعنا سينا فى الشمال بالحرب ، كما ضيعنا (جبل علبه) فى الجنوب بالســـلم والصمت ... وجبل علبه ـــ افتعلت انجلترا اقتطاع منطقة جبل علبه اداريا من مصر ســـنة ١٩٠٢ ـــ الذى لا يذكـــر فى كتبنا أو مدارسنا أو مجالسنا أو صحفنا منطقة أكبر مساحة من سينا وأغنى موارد طبيعية . وهى الآن تمثل الأعراف بيننا وبين السودان الشقيق . وطالمـــا نبه العلماء والدارسون منا الى وجوب العناية القومية والاجتماعية بهذه المنطقة فلم يسمع لهم أحـــد ... والعلم ليست له دولة بل كان تابعا للدولة وأجيرا اذا أراد ... شـــأنه شـــأن القانون الذى أمر بتتبيعه للدولة فلمـــا أبى لقى رجـــل القـــانون

فى مجلس الدولة ما لاقاه وهو الرجل الذى وضع الدساتير فى البلاد العربية شرفا.وتشريفا لمصر ...

ما الذى شل السنتنا وعقولنا معا ؟

هل هو الجهاز الرهيب الذى كان دولة وحده ، أعلن جمال عبد الناصر سقوطها بعد النكسة ؟

هل هو التعذيب والتنكيل ، الذى كان يمارسه هذا الجهاز .

هل هو جهاز الشعارات الرنانة والطنانة وراءه مراكز القوى يأخذ علينا شارعنا وأذيننا وعيننا وأماكن الجد واللهو على السواء ؟

هل هو النشيد المصرى والأغنية المصرية التى دخلت حلقة الذكر ؟

هل هو كل هؤلاء ؟

اجتمع علينا من مراكز القوى القمع والتضليل والزمر والطبل بل الرقص أيضا .

كل شىء ضاع .. كل ما بداخل الانسان المصرى من كرامة وقيم ومبادىء واباء ... ضاع يوم فرضت كما يقول توفيق الحكيم (الحراسة على مخ الانسان) .

ولكن توفيق الحكيم ما باله لم يقل هذا من قبل ؟ ان ندمه اليوم ذكاء خبيث أو خبث ذكى .. ما جدوى الاعتراف بالخطأ فى وقت ليس الشعب فيه بحاجة الى الاعتراف بعد أن سقطت الأقنعة وظهرت الحقيقة ...

انه مجرد تخفيف للحساب هو قناع من نوع أرقى يليق بأصحاب « الأفكار » .

لقد كتب نجيب محفوظ الكثير

وتوفيق الحكيم لم يكن مسحورا أو مخدوعا أو (فاقد الوعى) مع الفاقدين كما يقول بدليل مسرحيته (السلطان الحائر) و (بنك القلق) اللتين لم يشر اليهما عامدا فيما أحسب وهما خير من التعلل بالتخدير والتسحير . ولكن (الحكيم) يغير مسكة (العصا) فيقبض عليها بحكمة من نوع آخر ، من (النص) لانه كما قال ، بعد أن حوم كثيرا ، من جيل قيدت حريته وتحرره **(روابط متصلة بهذا النظام)** .

النظام الذى اجتمعت علينا فيه من مراكز القوى المناهج والاذاعة والصحافة والوسائل الاعلامية لتصبنا فى قوالب مرسومة لنا ليغدو الانسان المصرى انسانا نمطيا كاليونفورم .. انسانا مقيدا بالحشدية ... مسلوب الحرية ... انسان حشد والحشد دهماء منظمة تسوق الى الخراب اذا قادها مثل هؤلاء .

ان الفرد فى حشد كبير ينحط خلقيا واجتماعيا كما يفعل الأمريكان عندما يجتمعون لتعذيب الزنوج فيأتون من ضروب الوحشية ما لا يتردى فيه انسان وحده ...

سئل يونج عن سر أزمة أوربا فقال فى كتابه :
The Undiscovered Self

هو ضياع قيمة الفرد .

الانسان الحقيقى ضاع وسط الأنظمة ، الظاهرية والسلطة المهيمنة . مثل هذا الانسان من السهل أن ينقلب الى النقيض لانه أصلا لم يحقق ذاته ولم يحقق لها استقلالا خاصا فسرعان ما يتعرض **لتشقق شخصى وثقافى** ... وهو ما حدث للمثقفين المصريين على أيدى مراكز القوى .

غباء أن تفبرك العقول والأفكار ... وغباء أن تسوى بين العقول وقد خلقها الله متفاوتة متباينة الحظوظ من الذكاء ...

أن تفبرك العقول كفر بالدين الذى كرم الانسان ودعاه الى التفكير واعترف بارادته يوم هداه (النجدين) وهما طريق الخير وطريق الشر ... **كفر بكل القيم ...**

لم يعد العالم مهددا بالكوارث الطبيعية او الأوبئة ولكن بالتغيرات السيكولوجية كما يقول يونج ... ان أى اختلال يصيب التوازن فى راس حاكم من الحكام يلقى العالم فى بحر من الدماء .

ويقول هربرت ريد فى كتابه « فلسفة الفوضوية » (من الصعب الا تفسد السلطة . هنا تحتاج الى ضوابط نفسية كبيرة) وهنا نتذكر قوله تعالى (ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) والغنى الوان : النفوذ غنى والسلطة غنى .

اما الضوابط النفسية فتعين عليها امة رشيدة لا عاطفية .

امة تنتظر الأعمال لتحكم عليها قبل أن تغدق الثناء بغير حدود . انه خطأنا .. !

لقد ابعدت مراكز القوى الانسان المصرى من الصورة فتمزق نفسيا وثقافيا وكاد ينسحق لولا بقية من ايمان حفظت عليه ذاته .. أن الطريق الى الله صلاة وصبر وعمل ذلك الفيتامين الذى لايباع فى الصيدليات ولكن يهبه الله من يشاء من عباده .

ان الحركات الجماهيرية تنزلق فى وهم الأعداد الجماهيرية ووسط صخب الأغلبية **يمكن اختطاف الأمانى بالقوة .**

كيف يصنع الديكتاتور

الانسان الطفل هو الذى يعتمد على الحـــزب او الزعيم او الحكومة . . . ومن هنا يكره الممتازون التبعية من اى لون . . .

اما رجل الحشد فيتوهم او يوهم او يشبه له ان القمة ممثلة فى الحزب او الحكومة تحقق له كل شىء . . . حالة وهمية او الحلم الطفلى . . انه الارتداد الى جنـــة الرعاية الوالـــدية . . . وعندما يســـود الوهم بأن الحكومة على كل شىء قديرة ، يكون الطريق الى الاستبداد ممهدا ،وهنا يكون الاستعباد الفردى لاحقا بالضرورة والمنطق . . . .

لقد كان الناس فى العصور الوسطى يرون الانســـان عالمـــا صغيرا (ميكروكوزم) microcosm وهى نظرة سليمة تربط الانسان ببيئته ، ودينه . . . **ولا يمكن لاحـــد ان يسلب انســـانا الهه** ، ومن حاولوا هذا فى العصر الحديث اعطوه الها آخر .

وحين يبتعد الانسان عن الدين يحدث له اضطراب عصابى .

وحين تتوقف المحبة ويحل الشك توجد القوة والعنف والرعب وزوار الفجر .

ان السعادة والرضا وتوازن النفس وثراء الحيـــاة ، معـــان لا يمكن ان تخبرها الدولة بل يخبرها الفرد . . .

دولة مراكز القوى جهاز يقمع الفرد فان أحسنت اليه فغالبا ، تعمل على تعضيد أوهام الفرد لانها لاتبنى نظرياتها على فهم وتفهم نفس الفرد فهى أصلا لم تقترب منه ولم تدرس احتياجاته الحقيقية ...

انها تعرف احتياجاتها هى لاستبقاء السلطة .

والمجتمع الذى يضيع فيه الفرد مجتمع متخلف ولو ملك المال والنفوذ واحدث الوسائل . ومن هنا أدان « برناردشو » الحضارة الغربية فى كتابه (دليل المرأة الذكية) ، وأدان « ديوى » ، أمريكا ، فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة Individualism old and new.

لقد حاولت أوربا وامريكا اللتان نقلدهما سحب السجادة من تحت قدمى الفرد بالآلة ، والنمطية ، والحركات الحشدية اجتماعية وسياسية . الانسان الغربى انسان احصائى ... انسان متوسطات فذكاؤه من خلال متوسط الذكاء لمجموعته ومثل هذا يمكن أن يقال عن سائر قدراته . وهل يميز انسانا عن انسان الا صفة فريدة فيه ؟

حتى الأخلاق حين ضعف سلطان الدين غدت أمورا تواضعية ما دام الفرد لا يحس بمسئوليته امام الله . ذلك الشعور الذى يرتفع على القانون . فقد يستطيع الخاطىء أن يهرب أو يتهرب من القانون أو يفلت من العقاب ولكن صاحب الحس الدينى ، السلطة الرادعة فى داخله .

والدين ليس المبادىء الاخلاقية مهما كانت رفيعة ، وليس العقائد مهما كانت مستقيمة .

ليس هذه أو تلك فكلاهما لا يشكل الاساس لحرية الفرد من أسر (الحشدية) التى هى المجتمع أو الكتلة ...

والدين الذى أعنيه غير العقيدة . فالعقيدة كما يقول يونج اعتراف بالايمان،ولكن الدين علاقة الفرد بالله أو علاقة الفرد بالتحرر .

ان الولاء لعقيدة معينة ليس مسألة دينية ولكنها فى الغالب مسألة اجتماعية فلا مفعول له ولا قدرة على منح الفرد أساسا يستند اليه ...

هذا حين يتغيا الدين المحافظة على التوازن النفسى .. ان النفس الشعورية فى الانسان يمكن فى اى وقت أن تعوق وظائفها بوساطة أحداث من الداخل والخارج لا يمكن التحكم فيها .. لهذا يلجأ الانسان فى القرارات الخطيرة الى القوة العليا تبركا بها ... المؤمن عنده « ارتكاز » .

ان النقد الذى يسمى نفسه مستنيرا حين يخضع الدين لنظريات عقلانية ، وتصوير ، محتواه ، مستحيلا ، يخطىء مثل هذا النقد الهدف والمرمى فلا يصيب الدين ولكن قصاراه أن ينتهى الى دين آخر هو **تأليه الدولة أو الديكتاتور** .

ان الدين وظيفة طبيعية وجدت منذ البداية لا يمكن القضاء عليها بالنقد العقلى الذى يعرض المعتقدات الدينية على المنطق الذى يفضى الى السخرية منها .

سحق الفرد أو تضييعه لا يغتفر تحت أى إسم من الأسماء . فالكنيسة نفسها حين ربطت الفرد بها فى الغرب لم تفلح . ولهذا خرجت الحروب الدموية من القارة التى تدين بالمسيحية التى تقول ان الله محبة .

الكنيسة فى الغرب حين ربطت الفرد بها أفقدته الشعور بالمسئولية ... وكان الأخلق بها أن تشعره بقيمته ... بقيمة الانسان الذى كرمه الله وأكرمه بالعقل وقدرة التفكير التى

يمتاز بها الانسان ، ولو أخطأ ، على (الملاك) أى الملك . فالقدرة على الخطأ ميزة لاعيب حين تعنى هذه القدرة ، التجريب .. المحاولة والاجتهاد .. السعى . ولهذا يقول رسول الاسلام :

(من أخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران)

أما الذى يعيش فى القبة السماوية بعيدا مع النجوم بعيدا عن الاغراء والاغواء فان من العفة الا تجد .

ان الرعب الذى أوقعت فيه الديكتاتورية ، الانسان ، هو قمة الفظائع التى لقترفها الغرب . فحمامات الدم التى أغرقت الدول المسيحية فيها بعضها ، بعضا ، والجرائم التى ارتكبهـا المواطن الأوربى ضد الشعوب السمراء أثناء استعمارة لهـا ، حلقـة متصلة ...

ومثل هـذا الرعب شكل فى بلدنا أحيانا سحابة قاتمة فوق رءوسنا . **وقد حق للرعب والخوف والقهر الذى كان ، أن يحل محله رابطة من النوع الوجدانى** تعود معها بيننا الصلات الانسانية التى وهت وكاد يدمرها الشك والتوجس فيتنا فى حالة تقاعس إخلاقى شاهت معه الوجوه والنفوس وتاهت المعالم والصفات ... مع أن الانسان لايكون انسانا الا اذا كان له موقف تجاه النفس وتجاه الآخرين .

انسان ثراؤه ليس خارجيا واردا من ثقافة مكتسبة أو مذهب آخرين، ولكن ثراءه داخلى من صفاء الذات ورهافتها وكرامتها بالحرية ... انسان هو نفسه **موضوع وشخصية** .

اننـا اذا اعتبرنا الثقافة نمو النفس فان هـذا النمو لايتحقق الا فى جو من الحرية يتيح للنفس الانسانية الراقية أن تعطى ما لديها من الادراكات والمنجزات والطرح فلا يهيج ولا (يهج) مثقفونا الى الخارج فارين أو يائسين لأن المحيطين بهم عندهم نزوع (**نطوحى**) ضد المثقفين .

لقد أعتبر (كارليل) بثقافته «نابليون» أنسانا متوسطا ولكن الفة التى نتحدث عنها فترة نابليونية .كم من واحد فيها (عامل نابليو ومن الأسف أن كثيرين منا صدقوا كثيرين منهم فعبـادة الاسم الشرق رسم من رسومه كذلك التركى الذى أمضى الليل كله وه يستمع الى صاحب الربابة وفى نهاية الليل قال له :

ــ اسمع قول حظرتكم شوية أبو زيد الهلالى علشان حظرتنا يكون مبسوط .

فرد عازف الربابة :

ــ كل ما سمعته كان عن (أبو زيد الهلالى) .

فتهلل وجه التركى وقال :

ــ لازم أنا كنت مبسوط

* * *

وبعد هذا كله طار صوابنا عندما وقع العدوان . أن العدوان الحقيقى وقع قبله على العقول .. على القيم . فالتحرير الثقافى .. تحرير الكيان المصرى البشرى هو أساس كل تحرير ...

اننا ، باللاوعى الذى نعيش فيه فى حالة اغمـاء قـومى ، ولا صحوة لنا الا أن نبحث عن **المفتاح الذى اضـعناه** .. أعيـدوا تقييم وتقويم حياتنا وسلوكنا وتعليمنا ... **اعيدوا كتابة التاريخ** .

محكمة التاريخ

هل هناك مسئول واحد عن الصدع الذى حدث فى الشخصية المصرية ؟

المدرسة المصرية آفة من آفات الشخصية المصرية .

والمطبخ المصرى آفة من آفات الشخصية المصرية .

والمرأة المصرية مسئولة بالدرجة الأولى عما نحن فيه . انها مسئولة حتى عن أخطاء الرجل المصرى لأنه كان ابنا لها يوما ما نلم تشكله الا على هذه الصورة .

كيف تعلم المدرسة المصرية اليوم ، التاريخ ؟ ماذا تقول ؟ مدائح ملوكية كالأدب العربى .... هل نعرف أو يعرف أولادنا شيئا عن دور الشعب فى صنع التاريخ ؟ أعفيكم من الجواب فانى أعرفه .. لقد حدثونا وافاضوا عن أبطال الحروب أى الذين قتلوا أكثر ...، والملوك الكرام الذين رعوا العلم والعلماء ... رعاة العلم **هؤلاء** صادروا أيضا الرأى الحر ، ورموا أصحابه فى غيابات السجون.. بل حرقوا قرى بأكملها لتنزل على رأيهم .

لا تأمنوا ألقاب التاريخ فكم من مأمون فيه غير مأمون ...

حتى الذين تحدثوا عنهم من السادة والقادة لم يستوفوا سيرتهم عن جهل أو عن علم ... من يدرى . ان كثيرين من هؤلاء كانوا أضعف من ذبابة على الرغم من قوتهم الظاهرة وسطوتهم الكاسرة ... ولعلهم فى ضعفهم وراء الكواليس ، أقرب الى القلب الانسانى منهم على المسرح فى أزياء التمثيل الملوكية أو العسكرية أو السياسية .

من الناس من يحارب الدجالين فى حياة المجتمع ثم يشيع الدجل فى التاريخ فيزيفون نسب الشعوب تارة ، وطورا يلبسون الاغتصاب ثوب الشرعية فيسمون الغزو تمدينا ، والاستخراب استعمارا وطمس الشخصية تطويرا ... الخ الأسماء الملفوفة أو المعكوفة ...

من المؤرخين مغرضون تملى عليه أهواؤهم ولم ينج من الغرض هيرودوت نفسه أبو التاريخ كما يقولون . والا فهل من الصدق قوله انه رأى فى مصر النساء تقضى حاجتها واقفة بينما الرجال يقضون الحاجة وهم قعود ؟ وهل من الصدق ما قاله وشايعه فيه بتلر ، وبلوتارك عن عروس النيل التى زعموا ان المصريين يلقونها فى النهر ليفيض ؟ بل قال به ابن كثير فى تفسيره ولو انه رواها بسند عن مجهول كما قال به فى تاريخه ابن عبد الحكم ؟

لقد اخترت هذه الأمثلة لأنها قريبة منا .

وهناك مؤرخون يجيدون ركوب ظهر الموجة فيكتبون ما يرضى الحاكم وان أحنق الحقيقة فكل من تولى قبله شر كله حين يستأثر عهده بالخير كله !

ولأمر ما فضل أرسطو ، الشعر ، على التاريخ .. ان كذبه التخيلى ، هو على الأقل رؤية بعيدة ولا يقصد بها التحريف والتحيف .

ولأننا نلقن تاريخ مصر ولا نقرؤه ، أضعنا المفتاح .

اننا نركز كثيرا على الهرم وهو منجز حضارى رائع ولكن تحويل المستنقعات أو أحراش البردى الى جنة خضراء منجز حضارى أيضا لا يقل عن بناء الأهرام فى دلالته على طاقة القدرة والارادة والبناء .

حقا ان الهرم الكبير ليس بناء فحسب ولكن وراءه ، الشخصية المبادرة التى أرادت فحققت بل قبله اعداد طويل قامت به شخصية « سنفرو » الذى أعد لمجد بناة الأهرام من بنيه .. عمل موظفين من الدرجة الأولى .. والمقصود بالموظف هنا قدرة التنظيم .. عمل الفنيين الحقيقيين ... ثم اننا متعجلون نقف مبهورين أمام الهرم الأكبر وكان يجب أن نبدأ بهرمى سنفرو فى دهشور ثم نتدرج الى الهرم الأكبر لنعيش التجربة ، ونحس المثابرة والاصرار ومحاولة التجويد ...

ومع هذا فالأهرام ليس منجز مصر الوحيد **فاللغة** ، منجز حضارى ، كالعمارة ، رائع . **والادارة** منجز حضارى بارع . **والرى** منجز حضارى كبير لأن الادارة التى ضبطت النهر هى سر من أسرار مصر . **والزراعة** منجز حضارى بعيد الأثر فهى دعوة الى الحياة بينما الصيد ازهاق حياة . لقد زرعت مصر الوادى فنشرت فيه النبات ، وزرعت الفكر حين قالت بـ « معات » وزرعت الحجر فشكلته فنونا .

الزراعة تثقيف للأرض فالمصريون حين حضروا الأرض للزراعة ، حضروها أيضا أى مدنوها ...

لقد علمونا مثلا أن (مينا) أول ملوك مصر القديمة . وأقول ان المدرسيين وحدهم هم الذين يبدءون التاريخ المصرى بمينا ... ولكن قبل مينا نشأت على هذا المكان ملحمة تاريخية من الجهاد

الحضارى ، رائعة .. ان السعى الحضارى المحسوب لمصر أو الذى يجب أن يحسب لها يبلغ عشرات الألوف من السنين .

لقد وحد مصر قبل مينا ، أوزوريس وحورس ضد التفرقة والجدب أى سيت .

لقد تضافر النيل والانسان المصرى على اخراج هذه الملحمة .. فهناك دالات أنهار ولكن الأنهار ودالاتها فى غير مصر ، لم تخلق الحضارة بمستوى هذا الخلق .. وأهم من هذا لم **تتواصل فيها الحضارة بغير انقطاع** كما حدث فى مصر ...

لقد عاش الانسان المصرى الفى سنة فى سعى حضارى قبل الاسرات والتكوين السياسى حيث حضر النيل المسرح للحضارة .. ووعى الانسان المصرى الدرس ومضمونه قيمتان كبيرتان :

* **الكل فى واحد** أى التعاون .

* **العمل** أى التكاتف لدرء خطر الفيضان .

هنا فى هذا المكان جمع الانسان المصرى نفسه فى وحدة حضارية مستمعا الى نداء النيل الذى جمع نفسه من أنهار ...

علمونا أن الطبيعة فى مصر رتيبة ... وجنة مصر يصفها بالرتابة من لم يستدق حسه . فلكل بقعة من الأرض المصرية « روح » يشعر بهذا **الحضور** ، الزائف الى سقارة .....

للهرم روح ، ولميت رهينة أى منف روح وكيان مميز ... للكنائس روح وللمساجد روح ... للقاهرة روح ، وللصعيد روح ، ولمدن الشواطىء روح ... والفروق بين الأمكنة هو باب تمييز الفروق بين الأعمال المختلفة .

علمونا أن أسلافنا وثنيون ومعظم الذين تكلموا عن الديانة

المصرية القديمة شغلهم عنصر الخرافة فيها لا الجوهر .. ولهـذا ظلت الديانة المصرية القديمة فيها منطقة يلفها الغموض والتحريف. منطقة misunderstanding

لقد عرفت مصر القيم يوم وضعت كلمة (معات) وحققتها ... يوم وضعت الأخلاقيات .. وطرحها الرائع فى هـذا المجال لم يزد لا حق عليه شيئا جديدا ...

ان الديانة المصرية القديمة يظلمها من يسميها (وثنية) ويحكم عليها بعد خمود فورتها الحقيقيـة حين عاشوا ادراك وجـود الله من وراء المعبود المحسوس .

ولأمر ما وصفوا « منفتـاح » اله الفن المصرى فى نحتـه بانه يشكل أجسادا طاهرة تقبل الآلهة أن تحل فيها ...

ان تواصل الحضارة بغير انقطاع دليل بر وخير ومجتمع متسام لا وثنى ... مجتمع مستقر وقرير . ولهـذا جسـد الفن المصرى (السكينة) ... انه **فن النفس** المطمئنة لأنها فى هذا الكون تحس طمأنينة الدار الآمنة ... طمأنينة الوطن القوى وحماه .

لقد حققت مصر السكينة ثلاث مرات وبصور متعددة ورائعة :

فى العصر القديم .. ثم فى المسيحية .. ثم فى الاسلام .

ولم يحقق بلد السكينة فى انجازاته **بالكيف والكم** الذى حققتـه مصر ... ولا يستثنى من هذا الهند والصين على عظم وضخامة ما حققتاه .. ومن هنا يجب أن يشع كل شيء مصرى « السكينة » من قرار سحيق .

ان مصر بلد أول كتاب دينى كتبه الانسان .

انها بلد الايمان على الرغم من أنها غيرت شكل دينها عدة مرات

ولكن جوهر الدين فى قلبهـــا واحـــد عبر الاخناتونيـــة والمسيحية والاسلام وهو « توحيد » يتمثل فى وحدة الله ووحدة الوجود .

ان الوجدان الدينى بالنسبة لمصر (القيمـــة) كالنيـــل بالنسبة لمصر (الأرض) .

ان من ينظر الى أبى الهول يحس الحضور المقدس .. الوجدان الدينى يمثله أبو الهول فى الغرب وجامع السلطان حسن فى الشرق.

والمصرى يحتوى كيانه حسا دينيا يقف وراء نظرته الى الحيـــاة والأشياء سواء فى هذا اخناتون وسانت أنطونيوس وابن الفارض. ان سانت أنطونى يمثل روح المعبد بلا حجر أو جدار ..

الوجـــدان الدينى يدركه من يقترب من روح مصر ، فى الديانـــة المصرية القديمة وفى المجرد الاسلامى ... واســـلوب المصرى فى الحالين يعكس هذا الحس الدينى كما يعكس حبه العابد للطبيعـــة المصرية .

الدين فى مصر وعى بالمقدس ثم اتصال به ووصل .

ان ايمان مصر المبكر بالدين ممثلا فى التوحيد أو حتى فى عبادة من العبادات كالشمس أو النيل، طبعها على الحساسية واستشعار الواجب والايمان بالخير والفضـــيلة والجزاء والعقـــاب والثـــواب والرضا والرحمة والعدل ...

انها بلد (معات) رمز العدالة والخير والحق .

مصر فى طبعها من الودادة والسماحة الرواح ما جعلها تجمـــع بين « ايزيس » و « سيت » بعد كل الذى فعله فى أوزوريس !! وتبكى على الحاكم الظـــالم وهى التى شقيت به، لأنه مات! وهى بعاطفيتها يشجيها الفراق ، وتبكيها المواقف يضعف فيهـــا الانسان ولو كان أصحابها الأعداء لا الأصدقاء .

هذه مصر التى لا يعرفها أهلها حتى غدا البيت المصرى فى القرن التاسع عشر يطلق على الشيء الذى يحلو فى عينه (عصمللى) نسبة الى الاتراك العثمانيين . وفى القرن العشرين ، الحلو هو (الافرنكة) ثم صار (مستورد) أما « الوحش » فهى « بلدى » ...

أين نحن من مصر وان دعونا أنفسنا ، مصريين ؟

اننا كما قلت فى حالة اغماء قومى لو صح هذا التعبير ولا بد .. لكى نفيق منه ، من عودة الى الماضى لا للتشدق الاجوف به ، ولكن لاستلهامه **واستكماله** والا غدونا أقزاما كالأشجار التى تقص جذورها .. ففى اليابان عندما يريدون (قزمية) شجرة يقصون جذورها .

أسمع من يقول من أين نبدأ ... رأيى ، المتحف المصرى نقطة انطلاق صحيحة لبث الوعى .. وعى من طراز جديد فى شبه الوعى واللاوعى الموجود حاليا . وقيمة المتحف المصرى فى المدى التاريخى الطويل مما لا يعطى عطاءه اى عمل فنى واحد مهما بلغ تمامه .

فى المتحف يستطيع المصرى أن يرى تاريخ مصر كيف ينسج خيطا خيطا ...

فى المتحف حيث تبدأ الحضارة المصرية من قاعة العصر الحجرى لتنتهى الى ذروة كبيرة من ذرواتها حيث يقوم تمثال امنوفيس الثالث ، والد اخناتون ، والملكة تى زوجته وأولادهما أى عصر الامبراطورية ... وعز الأمبراطورية حيث كانت مصر ترفل فى النعمة وتشرق بالثقافة وتهنأ بالسلام فى هدنة من الحروب .

ان التاريخ المصرى جزء من الوعى المصرى ..

لقد علمونا أو لقنونا بمعنى أصح أن الفلسفة من صنع يونان..
وأن مصر ليس لها فلسفة .

لقد تفلسفت مصر حين جعلت الفن للحياة وهذا خلاف نظرية
الفن للفن .

الفن للفن سوءة وليس حسنة لأنه يقف عند هذه الغاية ..
ولكن الفن للحياة معناه اثراء معنى الوجود الانسانى .. وفى
تواصل واستمرار .

رمزت مصر بالبقرة الى السماء بل الى الطبيعة لأن البقرة
عندها ودادة ورفق .. وداعة وحنان .. أمومة ورعاية وعطاء ..

لقد فهمت مصر (الرضاعة) فهما عميقا ... انها اتحاد الأم
بالوليد ولهذا أشاع قدماء المصريين فى فنهم (الرضاعة) فالملك
امنوفيس يرضع من الآلهة حتحور ، وحورس يرضع من البقرة
التى هى رمز الطبيعة الأم .. فهو يتحد بالكون .

أن الآنوثة فى الحضارة المصرية صفة كونية بما هى رمز التلقى
والإستنبات والعطاء .

هذه هى فلسفة مصر .. فلسفتها غير المكتوبة .

لقد رسمت مصر القديمة البقرة شجرة . والشجرة لها ثدى
والانسان يرضع من الشجرة ، والمرأة لها قرنان ... لم يكن هذا
عبثا من الفنان المصرى بل فلسفة كبيرة ... انه يرمز الى وحدة
الكون فى غلاف من الرحمة التى وسعت كل شىء .. فالشجرة
رمز عالم النبات والبقرة رمز عالم الحيوان ..

انها رهافة وجدان مصر التى فطنت من آلاف السنين الى ما يسميه
الانجليز اليوم : Unitive knowledge

وفى التصوف الاسلامى قصة تقول أن المريد طرق باب الحبيب فسمع السؤال : من ؟ فقال : أنا .فلم يفتح الباب فانصرف المريد.. وراجع نفسه ثم عاد مرة أخرى وطرق الباب .

ـــ من ؟

ـــ قال المريد : أنت

وهنا فقط فتح الباب .

لم يكن الخيال عند مصر شطحات سريالية بل كان خيالهـــا عين داخلية بصـــيرة ترى ما لا يدركه البصر ... رؤيتهـــا بعيـــدة .. مديدة .. رؤية شفة مستشفة .

لقد احترمت مصر القديمة، الحيوان..ولم تحترم مصر الحديثة، الانسان...لقد نجحت مصر فى الكشف عن كنون الحيوان كمجلى من مجالى القدسية فى هذا الوجود ولكن الذين لم يروا فى ديانة مصر الا الوثنية انما نظروا اليها فى عصور الضعف كما تنظر العين الى المصـــباح الخابى الكابى لا ترى فيه الا(الهباب) أو (صماد فانوس) .
مصر عبدت الحيوان . نعم . لاحساسها بروعة الخلق فيه فهو جزء من الله بما هو مجلى من مجالى قدرته ...

الفرق بيننا وبينهم اننا نقرن (القـــرد) بالقرداتى . وهم كانوا يقرنون القرد **(بالحكمة)** ، فكان (تحوت) اله الحكمة .

الحيوان هو الحياة .. والله يسمى الدار الآخرة (الحيـــوان) . كما أشرت ولكن مصر الحديثة هان عليها ، وفيها ، **الانسان** .

حتى الثعبان لم تنظر اليه مصر القديمة نظرة مسطحة بل رأت فيه على شره الظاهر ، تعبيرا عن الوجود الجذرى، فتشكل الجسم

فى التفافة مستديرة رهيبة تنمو منها الرقبة والرأس فى ارتفاع .. هذه الهيئة كالجذر والساق .

رأت مصر فى الثعبان ، على شره الظاهر ، تعبيرا عن الحيـــاة الفتية القوية الممتلئة البأس .. ولأمر ما سمت اللغة العربية أنثى الثعبان (حية) ... من حروف الحياة .

لهذا شاع رسم الثعبان فى الفن المصرى ... ان مصر القديمة عندها ادراك رهيف بتيار الحياة السارى من النجوم الى أعمـــاق الأرض .. من كائنات الخير الى كائنات الشر ... عندها شعور سيال الحياة الجارى .

هذه هى فلسفة مصر .

فلسفتها غير المكتوبة كما أشرت .

والرؤية المقدسة ، التى ترى ما وراء الشيء من خلاله كانت عند مصر القديمة والصين وحدهما ... قد يقـــول قائل : والهنـــد ؟ فأقول : لا . ان الهند فنها أدبى الطابع حتى المعبد عندها تركيبى كالجملة المفيدة . ولكن مصر والصـــين نفـــذتا الى أسرار الطبيعـــة والمعنى البعيد .

يقول بوذا (فى بداية الطـــريق — أى طريق المعرفـــة — كانت الأزهار أزهارا ، والجبال جبالا ، والبقر بقرا .. يشير الى التلقين الذى يلقنه الانســـان فيكون قنـــاعا يحجب عن العقـــل خـــوافى الأشياء) ...

وفى منتصف الطريق غدت الأزهار وهى ليست أزهارا ولا الجبال جبالا ، ولا البقر بقرا ... أى بالمعنى الحرفى لهذه المخلوقات .

وفى اللغة فرع يسمونه (**علم المعانى**) يهتم بأنواع الجمـــل

وتقسيماتها وأغراضها فى الخبر والانشاء مع أن اللغة ، أحـيانا ، تقف بين الانسان والمعنى بدلا من أن توضحه .. وكذلك المعلم..

فحين يقول انجيل متى (طوبى للحزانى لأنهم يتعزون) لا يقصد الحزن بمعناه الكابى الذى يسترسل فيه أصحابه استجابة خفيه أو مقصوده لظاهر هذه العبارة ، وانما يقصد الحزن الشفاف الذى يستشعره أصحابه من عمق احساسهم بعزلة الانسان فيهـم عن الينبوع الأكبر .

هل يهم ازاء المعنى العميق لهذه الكلمـــة أن نعرف ما اذا كانت خبرا أو انشاء ؟

ونستطيع القول نفسه عن علم البيان وعن علم البديع أى عن فروع البلاغة الثلاثة ... ولو انفتحنا فى تعليمنا اللغة وبلاغتهــا على المفهوم الكبير للأدب، لتجاوز اهتمامنا الجزئيات الى الكليات.. وتحررنا من الألفاظ الى القطع الأدبية والاساليب وموسيقى الروح فى العمل الأدبى..أى تجاوزنا التقسيم القديم برمته لنقف وقفة واعية عند الفن ومدارسه وأساليبه .. وعند علم الجمال وعلم النفس.. ما هو الوجدان وما هـــو الخيـــال وما هـــو الذوق .. وما هى العواطف الانسانية التى ينبع عادة ، منها الأدب كسائر الفنون.. ان قيمة الأدب فى قدرة الكلمة التى هى الترجمة الكاملة عما فى النفس . ولكن البلاغة القديمة صيرت الغلاف هو الفن حين حسبت الكلمة برنينها وتقطيعاتها هى الفن ، وحين حبست اللغة فى القاموس فعزلتها عن الحياة بنبضها .

وهكذا نحتاج الى عملية مراجعة كبيرة .. تصفية وتنقية لتراثنا الفكرى والاجتماعى .... عملية مراجعة للتاريخ .

ومراجعة الحاضر أيضا بمواضعاته واعتباراته ومتناقضـــاته ، والوان السلوك . لكى نعيد كتابة التاريخ .

المفاهيم الثابتة وكتابة التاريخ

١ - الأهرام والسخرة

من الأفكار التى تدخل فى مجموعة المفاهيم الثابتة **بناء الهرم** . . . فالوطنيون المتحمسون يرون فيه **صرحا للعمارة والعلم** وبراعة الادارة وخلود الفن . . . وآخرون وطنيون أيضا ولكن بطريقة أخرى . . . فهم امعانا فى النظرية الأخرى وولاء لها يرون فيه **صرحا شاهدا على الاستعباد والسخرة**، فشاعر كبير مثل عزيز أباظة يقول عنه فى قصيدته (السد العالى) أن الهرم بنى بأيد مسخرة موثقة ! وكأن هناك منافسة بين الهرم والسد !

أما الفاتحون ممن تحكمهم عقدة المجد فهم يحسون ثقل الهرم على نفوسهم وقد حاول بعضهم فعلا هدمه فلم ينالوا منه غير ثمانية أمتار فى قمته كانت كافية للدلالة على حمقهم وبقى الهرم . . . وحاول بعض آخر من شدة احساسه بعجزه أمام الآثار المصرية أن يكسر انف أبى الهول ليطامن من شموخه . وفى الأدب الشعبى يكنى بالتعبير (يكسر انفه) عن الاذلال والتحطيم . ولكن أبا الهول ظل رابضا ساخرا فى كبرياء . . . ساخرا من كل دخيل . لم يخسر شيئا حين خسر الدخلاء كل شىء . . .

دعنا من الحانقين والمحبين على السواء . ما هو وجه الحقيقة فى هذا الموضوع ؟

هرمان يونكر يرى (أن ما فيه من اتقان لا يمكن أن يحققه عامل مستعبد) وفى رأيى أن الاستعباد قد يستطيع أن يبنى هرما ولكنه لا يستطيع أن يحقق اتقانا أو يفجر فنا سعيدا فى ، بغددة فالنقش فى الهرم وفى المعابد المصرية فيه فرحة وغنائية يندر وجودها فى فن آخر . والمعبد بتقسيم الجدار والسقف صخرة منحوتة بحساب نفس متبلورة غنية الأبعاد ..

من الهرم الكبير الى الخرزة الصغيرة .

من الايجاز الى الاسهاب .

أبعاد غنية من الوفرة وراءها خيال له رؤية داخلية تنفذ من السطح الى العمق البعيد .

كان يشرف على حفريات سقارة مدير يقول :

(عندما أسمع دقة الأزميل حزينة أعرف أن هناك خطأ فى العمل !! وعندما أسمعه سعيدا — من سعادة العامل — أعرف أن العمل مضبوط ..)

جاء فى « تاريخ العلم » لجورج سارتون (ان متوسط الخطأ فى طول جوانب الهرم لايعدو ١ : ٤٠٠٠ وأن الخطأ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه لايعدو كسرا عشريا يساوى دقيقة واثنتى عشر ثانية ، وأن معدل الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد عن ٣ : ١٠٠ ، وأن الفواصل بين الأحجار لا تزيد عن نصف ملليمتر ....)

هل كان عمال الهرم سعداء .. ؟

..

قرينــة اخرى غير (الاتقان) يضـيفها الكسندر شارف وهى حرص الطبقات الكادحـة على أن تدفن على مقربة من هرم خوفو بعد موته بأربعة قرون بما رسخ فى نفوس الشـعب من سيرته ومآثره .

أى ان الأهرامات كانت مسـاجد ذلك العصر فبناتهـا كانوا يتبركون ببنائها .

يقول الدكتور أحمد فخرى (١) (ان دارس التـاريخ يجب الا ينسى انه من الخطأ الكبير أن تحكم على ما حدث فى العصور الماضية بآرائنا الحالية ، أو ما نؤمن به الآن من قيم أخلاقية أو مبادىء . كان خوفو ملكا مقدسا ، ولا شـك أن رعاياه كان يسـعدهم أن يشتركوا فى اقامة مبانيه الخالدة ، وقـد شيدت فى أيامه كثير من آيات العمارة والفن . فاذا كان هذا الشخص حقيقة ملكا ظالمـا متسلطا عاتيا فمن غير المعقول أن يكون فى استطاعته ترك البلاد فى حالة اقتصادية مستقرة ساعدت ابنه (خفرع) على بناء الهرم الثانى ، وهو بناء يكاد يمـاثل هرم أبيه فى عظمتـه . واذا كان لادعاءات أولئك الكتاب — المعارضين — أى نصيب من الحقيقه لاستحال الاستمرار فى حفظ الطقوس الدينية الخاصـة بالملك (خوفو) قرونا كثيرة ، فلدينا من العصر البطلمى ، أى اكثر من الفى سنة بعد موته ، آثار تشير الى استمرار وجود كهنة «خوفو» حتى ذلك العهد) .

وعلى النقيض من هـذا ، المؤرخ الشهير « بلينى » الـذى لم ير فى الأهرامات الا (استعراضا سخيفا ، لا فائدة منه ، لثروة الملوك) ولكنه لم يلبث أن تسـاءل فى دهشـة لا تخفى : كيف استطاعوا رفع الأحجار الى هذا الارتفاع العظيم ؟

(١) كتاب « الأهرامات المصرية » ص ١٥١ .

ويبدو أن « بلينى » لم يكن في دهشته ، وحده فقد راع الهرم ، الكثيرين حتى لقد قدم بعض المغرمين بالاحصائيات ، كما يقول الدكتور فخرى ، كثيرا من العمليات الحسابية ليعقدوا مقارنات بين ارتفاعه وحجمه وبين الآثار الأخرى الشهيرة. واستنادا الى تلك التقديرات يقول عالم الأثريات أن (مساحة الهرم الأكبر يمكن أن تتسع لمجلس البرلمان وكاتدرائية القديس بولس فى انجلترا ، ويبقى منها بعد ذلك مكان كبير غير مشغول. وهناك حسبة أخرى يتضح منها أن المساحة التى تشغلها قاعدة الهرم تكفى لأن تشيد فيها كاتدرائيات فلورنسا وميلانو والقديس بطرس فى روما ، وكذلك كاتدرائية القديس بولس وديروستمنستر فى لندن .

ولو أننا قطعنا جميع أحجار الهرم الى أحجار صغيرة ، حجم كل منها قدم مربعة واحدة ، ووضعنا هذه الأحجار كل منها الى جانب الآخر لأصبح طولهـا ثلثى طول الكرة الأرضية عند خط الاستواء . وعندما كان نابليون فى مصر حسب أنه يوجد فى الهرم الأكبر ، وما جاوره من أهرامات ، أحجار تكفى لاقامة سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متر واحد ، وقد أيد أحد الرياضيين الذين كانوا بين علماء الحملة الفرنسية هذا التقدير الذى حسبه نابليون) .

ويغيب فى البهر حقيقة أخرى رائعة وهى **الطرق الصاعدة** التى أكدت الاكتشافات الأثرية وجودها بالضرورة لبناء أى هرم.وتشييد الطرق الصاعدة **عمل كبير ومجهود ضخم لايكاد يقل عن تشييد الهرم نفسه**) .

وغير الطرق الصاعدة يلحق بكل هرم معبد جنازى وهيكل وسفن وسور خارجى مما يسمونه (المجموعة الهرمية) .

يقول الدكتور فخرى مرة أخرى (ان العقل ليحار اذا ما أعملنا التفكير فى كمية العمل الذى يحتاج اليها مثل هـذا البناء حتى لو استخدمنا المعدات الميكانيكية الحديثة ...)

ومع هذا لم يروا هم فى هذا العمل شيئا محيرا بل شيئايستحق الذكر !! فلم تشر نصوصهم المدونة فى الأهرام أو غيرها الى عمليه البناء ، أو وصفها !! ترى ما الذى يستحق الاشارة فى نظرهم بله الحديث ؟!

جورج سارتون يقول فى (تاريخ العلم) ، (انه مع التسليم بأن المهندسين المصريين أحلوا القوة البشرية محل القوة الآلية فى تشييد هرمهم ، الا أن ذلك لا يفسر المعجزات الفنيـة والمعمـارية التى تجمعت فى بنائه ، وانما يضيف اليها معجزات بشرية لا تقل عنها فى صعوبة تفسيرها ، ذلك انه من السهل أن نتحدث عن حشـد آلاف من الرجال ، وليكونوا ثلاثين الف رجل مثلا ، للقيام معـا بعمل شاق ، ولكن كيف تم تشغيلهم ؟ وكيف تم تـدريب الفنيين منهم ؟ وكيف أمكن تحقيق التعاون بينهم ؟ وسواء تأتت القـوة اللازمة لعمل من الأعمـال عن محرك آلى أم عن كتلة بشرية ، فان ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلبان ذكاء ناضجا للتنسيق بين العمل والعمال) .

ونعود الى النقطة الأولى هل تم البناء رهبة أو رغبة ؟ سخرة أو رضاء ؟

الدكتور عبد العزيز صالح أشار الى ان البناء كان يجرى فى مواسم الفيضان والى أن البناء كان يعفى منه طوائف المتعلمين من موظفى الحكومة وكهنة المعابد وربما كبار الشخصيات من أهل المدن والقرى أيضا أى كان قاصرا على اليدويين .

كما أشار الى أن العمال كانوا مسحرين بالعقيـدة الـدينية

فالملك كان رأس الديانة ووريث الأرباب ، من الناحية النظرية على اقل تقدير بل كان يعتبر ملكا فى الآخرة ايضا والجهد فى سبيله شجاعة .

كما أشار الى أن العمال خصصت لهم شون الغلال وخصصت لهم مساكن لايوائهم ولم يتركوا فى العراء وقدم لهم الطعام والشراب وتضمنت النصوص قول بعض من تولوا رياسة الاتباع والصناع

(لم أضرب انسانا وقع تحت يدى ولم استعبد احدا فى العمل)
وقول أحد أثرياء الأسرة الرابعة :

(كل صانع عمل فى مقبرتى ارضيته)

وقول آخر (أنفقت على قبرى هذا من متاعى الحلال ولم يحدث اطلاقا أن اغتصبت متاع شخص ما)

يقول الدكتور عبد العزيز صالح : (ليس من شك فى أن مثل هذه الأقوال لا تخلو من مبالغات يستقبل الشخص بها حياته الأخرى ، ولكن ليس من شك كذلك فى انها لا تخلو من أثارات صدق . والواقع انه اذا كان لكل طائفة من الحكام آفة ، وكان من آفة حكام بلاد النهرين الأقدمين حب البطش وسفك الدماء والنهم الى الجبروت ، وكان من أمر الحكام الرومان الاقدمين مثل أمرهم ، وكان من آفة حكام العصور الوسطى بذل جانب كبير من موارد دولهم وبيوت أموالها فى سبيل بناء القصور وحياة الاستمتاع ومدائح الشعراء فقد كان من آفة الفراعنة المصريين أنهم وجهوا جانبا كبيرا من موارد ارضهم الى صالح المعابد والمقابر والأهرام ...)

***

وقد يتساءل بعض الناس لماذا لم يهتموا بالنواحى العمرانية التى تعود على الشعب كله بالخير ؟

وهنا أقول ان ملوك الأهرام بـذلوا الكثير من أجـل التعمير والتحضير وبعض هذا ، **الزراعة** ، علم ذلك العصر وصناعته بما وراءها من رى وشق الترع والقنوات ، والتقويم السـنوى وكل ما حمله عصرهم من حضاره بفنونها وعلومها ... فعلوا هذا قبل **بناء الأهرام** بل لعلهـم بسبب هـذا كله وبه ، بنوا الاهرام ... بعائد الزراعة وخيرها ، وبدافع استمراء نعيمها واستبقائه بعـد الحياة . فما يفكر فى الخلودمحروم أو مجهود ولكن نعيم الحياة فى مصر جعل جنة المصريين ، مصر خالدة .

***

بل ان أمين سامى (باشا) صاحب كتاب تقويم النيل يقول فى جزء (مصر والنيل) برأى جديد مضـمونه ان النيل كان يجرى فى ذلك العهد بالقرب من الهرم . فكانت الرمال تطمر مجراه . وكانوا يقاسون فى ازالتها أشد العذاب فبنوا الهرم ذا السطوح المـائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس . وضمنوه فوائد أخرى منها أنه يمكن به تعيين الجهات ومعرفة الفصول .

ودفن خوفو به من قبيل دفن أصحاب المساجد فيها .

حين نعيدكتابة التاريخ يجب أن يعرف النشء وجوه الراى فى هذا الموضوع ليحكم بنفسه لنفسه وحتى لا يقـع ضـحية آراء مغرضة ، أو حانقة ، أو خاطئة ، أو متورطة مسايرة ومجاملة

لمـاذا الأهرام دون سائر الآثار فى مختلف الحضارات القديمة تسلط عليها فكرة السخرة ؟ مع أنهـا بنيت فى بيئـات لا تنتظر انحسار فيضان،أو يوثق علاقتها بالحاكم نهر معبود يجعل مرضاته باعتباره سيد النيل ، بركة وضرورة معا ؟

لمـاذا لا يقال ان سقارة حقق فيها المصريون حبهم للنور فأبو

الهـول فى هيئته وموضـعه من الهضـبة بكل ما فيه من قرار واستقرار وطمأنينة يمثل فكرة انتظار مشرق الشمس .. والهرم نفسه مصعد الى الشمس فانها (عندما تسقط مضيئة بين فجوات السحب فى السماء فانها تظهر كما لو كانت أهراما هائلة الحجم تربط بين السماء والارض . وتقرأ فى أكثر من موضع فى نصوص الاهرام وصفا للملك الميت وهو يستخدم أشعة الشمس كطريق صاعد يرقى عليه الى السماء .)

هذا الكيان الرياضى الصارم الأخـاذ الجليل .. انه طائر ذو أربعة أجنحة ولهذا يجب على من يزوره أن يقف قبالة الزاوية ثم يرفع بصره الى القمة ويحتضنه من الجنـاحين فى عملية تجـديد للنفس وللوجود البشرى المصرى .

انه وعاء للزمن فيه كينونة وراء صيرورة الأيام .

انه حوار بين الانسان والمطلق .. كتلة تطمئنه وسط الفضاء اللانهائى ... كتلة تملأ جزءا من الفراغ ثم عاد الانسان المصرى فلفاها حين صقل سطح الهرم بالطلاء الأبيض استزادة من النور. وهذه الثنائية فى الشعور عبرت عنه أساطيرنا حين جعلت البطل يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

الهرم رؤية لأجيال مجتمعة فى رائعة فنية .

أى انه اشارة الصمود والثبات فى الشخصية المصرية .

٢ - أسماء وراءها مواقف « فرعون »

قالوا (فرعون) وعنوا باللفظة التجبر والتكبر، وأحيانا الشر والكفر فيقول المثل (تحسبه موسى تلاقيه فرعون) .

وعند المثقفين المصريين يعنى لفظ (الفراعنة) المجد كله والفخر كله . لنناتش كلمة (فرعون) .

كيف تكونت ؟ ما هى دلالتها ؟

يقول الدكتور عبد العزيز صالح انه لقب (جمع بين صيغة مصرية قديمة ، وصيغة عبرية قديمة ، وصيغة عربية قديمة . صيغته المصرية القديمة برعا أو برعو «وتشبهها الصيغة الآشورية برؤو أو برعو» وصيغته العبرية « فرعو » بعد قلب الباء فاء « وتشبهها الصيغة الأغريقية فاراو » وصيغته العربية «فرعون» بعد اضافة نون أخيرة .

أما الصيغة المصرية فهى تعنى البيت العالى، أو البيت العظيم. وتلقيب الملوك والرؤساء ، شيء معروف فى القديم بل لا يزال مألوفا فى عصرنا الحاضر) .

ما الذى يجعل هذا اللقب سيء الوقع عند بعض الناس ؟

هل هو فرعون موسى ؟

هل من طبيعة البشر أو طبيعة الأشياء أن يصدق فرعون بكل هيله وهيلمانه ، وللوهلة الأولى ، داعيا ، فى نفسه منه ما فيها ...

وقد كذبت قريش بعد أن قطعت الانسانية من عمر الزمن دهورا بعده ، الزكى السرى الصادق الأمين وهو فى الذؤابة منها شرفا ومحتدا ؟ لم يكن عندها عذر عصبية الجنس أو عقدة الثأر القديم أو مبرر الاستعلاء .

لقد كان موسى فى نظر فرعون كما جاء فى القرآن الكريم قاتل أحد رجاله وهو فى نظره ، ربيب قصره حتى ليقول له فى عتاب أو تأنيب أو كليهما : (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين .. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين).

ولم ينكر موسى (قال فعلتها اذاً **وأنا من الضالين**) .

سورة الشعراء الآيات ١٧و١٨ و ١٩

كيف ؟

القرآن الكريم يقول : (ودخل المدينة **على حين غفلة من أهلها** فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه **فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان** انه عدو مضل مبين .

قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم .

قال رب بما أنعمت على فلن أكون **ظهيرا للمجرمين**)
سورة القصص الآيات ١٤ و ١٥ و ١٦

(قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) القصص آية ٣٢

الا يخطىء من ليسوا أنبياء ؟

وعندما يخطىء فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل فرعون ؟

الم يكن اخناتون متساميا موحدا نبيلا ؟

هل كل ملوك الفرس قمبيز ؟

هل كل خلفاء بنى العباس ، السفاح ؟

هل كل الفاطميين « الحاكم » ؟

واذا جاز أن يحسب **علينا** خطأ فرعون واحد فان من المقابل ، أن يحسب **لنا** أمجاد فراعين ، يكفى الواحد منهم أمة بأسرها فى باب المفاخر ....

على أن من أئمة المسلمين والواصلين من برأ فرعون من الكفر . فالامام محيى الدين بن عربى يقول فى كتابه « فصوص الحكم » (بايمان فرعون ايمانا لازما ، وأنه قد لقى ربه طاهرا مطهرا ، سالما من العيب ، بريئا من الذنب) وظاهره فى هذا الامام جلال الدين الدوانى فى رسالته الخطية الموجودة بدار الكتب . مستندين الى الآية الكريمة (آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) سورة يونس آية ٩٠ ، وجعله ابن عربى ، آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لاييأس أحد من الله تعالى .

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) .

واخيرا اسم **مصر**

حين احتجب اسم مصر قال لى صديق فنان ممن يحبون مصر حبا خاصا ... هونى على نفسك وهل الذى احتجب الاسم الأصلى ؟

كثيرون ومنهم مثقفون يعتقدون أن اسم (مصر) هو « التسمية العربية أى تسمية حادثة فى القرن السابع الميلادى فهى ليست بالاسم الأول القديم .

والحقيقة أن المصريين القدماء فتنوا بواديهم الأخضر وسموه أكثر من اسم . فهو ، أى مصر ، عندهم (كيمه) أى السمراء ، و (تاكيمة) أى الخمرية ، و « تاوى » أى الأرضين و (ايدبوى) أى الضفتين . ولم يكتفوا بهذا كله بل أضفوا عليها من ولعهم بها صفات شاعرية كما يدلل المرموق المعشوق فقالوا « ايره رع » أى عين الشمس أو عين رب الشمس وقالوا « وجاة نثرو » أى عين رب الأرباب و « اترتى » أى ذات المحرابين و « باقة » أى الزيتونة فهى خضراء دائما ..

أما جيرانهم من كنعانيين وأشوريين وفينيقيين وبابليين فكانوا يسمونها مصرى ومشرى ومضر ومصرم ومصرايم « التوراة » ومصرين وختمها القرآن الكريم بلفظة مصر .

ومن الوثائق الخارجية المحفوظة رسالة بعث بها أمير كنعانى فى الربع الثانى للقرن الرابع عشر ق . م يطلب حماية فرعون ويستأذنه فى ارسال أهله الى « ماتو مصرى » أى الى أرض مصر .

اذن كلمة مصر تمتد فى الزمن الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وتقارب هذه اللغات فى اسم مصر يطرح احتمالا مؤداه أن هذه اللغات أخذته أصلا عن أصحابه ... عن اللغة المصرية القديمة فان أسماء الأعلام تؤخذ كما هى الى حد بعيد ...

يقول الدكتور عبد العزيز صالح (ليس من المستبعد اطلاقا ان تؤدى الكشوف الأثرية المقبلة الى اظهار وثائق مصرية تذكر اسم مصر فى صراحة ، ولكن حتى تظهر هذه الوثائق يمكن ترتيب الآراء المحتملة فى ضوء المصادر المعروفة حتى الآن فى تحليل اسم مصر ومترادفاته القديمة ، فى أربعة آراء تنتهى جميعها الى اعتباره لفظا ساميا مشتركا يؤدى معانى الحاجز والحد والسور ، ويترجم عن صفتى الحصانة والحماية) .

ويؤيد هذا الرأى ما نراه فى النقوش والرسوم والتماثيل من احاطة كل عزيز عليهم وخاصة ملوكهم بقرص الشمس المجنح وبماء النيل وتسرب هذا عبر الزمن ، الينا فى قول ابن البلد (مصر المحروسة) .

ومن حب المصريين مصر ، كان قدماؤهم يسمون أنفسهم شعب الشمس ، والشعب النبيل ، وشعب الاله . بل تصوروا انهم نبعة منه صيغت من جسمه ، أو أنهم خلقوا من عينه ونزلوا من دموعه . وكان مليكهم كان ينطق بلسانهم جميعا (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟) .

قد تكون القوة والثراء والرخاء والسيادة ... قد تكون هذه الصفات مجتمعة ومتفرقة ازدهتهم فوصفوا أنفسهم بهذه الصفات . ولكن عصور الضعف بما تورثه من تخلف وتسيب وانحطاط هل كان الشعب المصرى يرى نفسه ، فيها ، دموع الله أم دموعه هو ؟

فى عصور القوة بمكاسبها .

وفى عصور الضعف بمثالبها .

نحن مصريون .

٣-مصــر والغـــزاة

قالوا ان مصر تعاقب عليها الغزاة وقصـــدوا بهــذا أن يرموا الشعبالمصرى بالاستكانة والخضوع .بل حاول الاستعمار تعميق هذا المعنى فى نفس الشعب حتى يستسلم لقدره فيه .

قضية أو نظرية آن الأوان لكى نناقشها :

زرعت مصر الوادى فكيفها النبات وعـــالم الزراعة المتجـــدد ابدا ... الهمها فكرة الخلود .. لمـــاذا لا تتجدد النفس المصرية هى الاخرى ؟ عالم الزراعة اكسب مصر صفة الثبات الدائم ... أن التقلبات لا تثير المصرى كثـــيرا ... **انه هـــو البـــاقى وكل العواصف تزول .**

لم يضع هدرا ، النضج الحضارى الذى اســـتقر فى أعمـــاق الانسان المصرى والذى كثيرا ما يكون قد قر تحت قشرة متواضعة أو خشنة أو فقيرة ، ولكن المصرى المتواضـــع أو الفقـــير يعرف (الأصول) و (العيب) . يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

(كان من المستحيل على المصرى أن يجتاز هـــذه الحضارات التى يكمل بعضها بعضا دون أن يمتص رحيقها .. ومن بين ذلك

الرحيق أن يفرق بين ما هو عابر وما هـو دائم ... ومن هنـا جاءت صفة الصبر عنده .. وجاءت صفة السكينة والهدوء التى يقابل بها الأحداث عادة لانه موقن أن المستقبلله آخر الأمر...)

* * *

ان الغزاة فى القديم غزوا مصر بعد أن نعمت طويلا بالحـرية والرخاء والفن . والأمم كالأفـراد يضعفهـا الترف . وكل أمـة يتعاورها المجد والاضمحلال...لم توجد الأمة التى أطرد مستواها على وتيرة واحدة ... تلك الأيام نداولها بين الناس .

ثم ان النصر فى الحرب لا يدل على أفضلية مطلقة ... هـل تزن اسبرطة فى التاريخ وزن أثينا وهى التى قهرتها وحكمتهـا ؟ أين اسبرطة من أثينا فى القديم والحديث ؟ .

ان الذى ألقى القنبلة على هيروشيما كان يعمل لحساب رئيسه فى أمريكا،فلا يدل هذا على أن القائد الأمريكى أكفـأ من القـائد اليابانى .

هذا حين لا تصلح الغاندية بدون غاندى .

ان الفكرة أخلد من العصا .

ان فرنسا هى الأوبرا وفولتير وروسو ... وانجلترا هى بيكون وشكسبير .

الأمم بالرءوس لا بالعضلات .

ويوم يسود الفكر سيبطل عمـل الجيـوش . ان الذى أنهى حرب فيتنام أن وجد بين المجندين الأمريكيين من يقـول لمـاذا ؟ (ليـه ؟) .

والذى أنهى استعمار فرنسا للجزائر أن قالت فرقـة فرنسية امرت بالسير الى الجزائر لمـاذا ؟ (ليـه ؟) .

مثل هذه الأصوات تفيق الطغاة ..

لقد قتلت القوة الغاشمة أرشميدس بخبطة عصــا .. وكذلك العالم الفرنسى « لا فوازيه » فى لهيب الثورة الفرنسية ...

ان العالم القديم كان أشبه بموجات .... تعلو دوله موجة ، وتمتد ثم تهبط وتنحسر لتأتى وراءها موجة أخرى . وهكذا بدأت مصر العرض .

وهى فى جميع الأحوال لم تغب الأضــواء عن قسماتها . ولما جاء الاسلام كان يحمل معنى ونظرية « الأمة الواحدة » (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . فكل وال مسلم غلب اسلامه جنسيته ، فلم تحس مصر بالغربة خاصة بعد اعتناقها الاسلام ثم تحمسها له وهبتها للدفاع عنه ووقفتها معه وتمكينها له . لقد استقبلت مصر الاسلام ، بما فيه منها ... وبحسها الحضارى بما فيه من انفتاح على الفكر وانشراح واحتضــان للقيم .... تجــاوبت مصر مع الاسلام .... أخذت منه وأعطته على العكس من تركيا .. لأن الأتراك أمة حرب ليس من طبعهم الســماحة والوداعة والرحمة والشفافية حتى التقى منهم كان فى عنجهية .. فقد روى الدكتور أحمد أمين أن التركى كان يقف بباب المسجد وفى يده كرباج يجلد به الرائحين والغادين ليدخلوا المسجد ويؤدوا الصلاة !

حتى الخلافة الاسلامية التى هبطت على تركيــا من السماء ، لم تستفد من هالتها وبركتها فلم تتفقه فى الدين،ولم تعدل فى الحكم، ولم تتبحر فى العلم،ولم يشف وجدانها أو تتثقف روحها .

كان زواجها من الاسلام عقيما وانتهى بالطلاق على يد أتاتورك. وهى نهاية طبيعية على الرغم من فزع الكثيرين فى وقتها .ولم تجد نصيحة شوقى لها (يا دولة السيف كونى دولة القلم) لأن القلم موهبة وعطاء (يؤتى) و (لا يكون) ...

ثم يأتى كاتب مثل Levonian يشغل عمادة مدرسة الدين فى أثينا ويحكم على العقلية الاسلامية بما اقترفته تركيا فى الخلافة

فى كتابه : Moslem Mentality .

وعدوا على مصر قائمة من أسماء الحكام ... ان ابن طولون والأخشيد والمعز وصلاح الدين كل هـؤلاء اتخـذوها منطلقـا وحكموا **منها** ، **وبها** قبل ان يحكموها .

حكموا باسم مصر وتوسعوا فى الفتح بطاقات مصر وأسسوا الدول يظاهرهم موقع مصر وثروتهـا وقدراتهـا الكثيرة ممـا لم يتوفر لهم فى بلادهم الأصلية وبين أقوامهم .... **انها عبقرية المكان أو روح المكان بما وهبه من امتيـاز** الموقـع وشـخصية الحضور فان الوجود فى **مصر شىء فى ذاته** يمنح صاحبه من طاقة القـدرة ما لم يمنحه حتى فى بلده الأصيل. والمثل عندى صلاح الدين ونور الدين فليس الأول بخيرهما ولكنه الأسعد حظا بوقفـة مصر معه .. تعرف هذا مصر فضلا عن اعتبار الدين واللغة . ولهذا عندما جاء الأجنبى الحقيقى نابليون لم تطقه فلم ينصرم على وجوده القلق بها ثلاث سنوات حتى كانت أجلته جلاء تاما عن ترابها . وليست مصر بدعا فى هذا فقد استطاعت البابوية أن تحكم أوربا على الرغم من الحدود قرونا بتأثير الفكرة الدينية .

ألم يدافع زعماء منا متطرفون فى وطنيتهم متحمسون فى حبهـم لمصر عن السلطان التركى باعتباره الخليفة وأمير المؤمنين ؟ ...

من يدرى لعل كثيرين نظروا الى سليم الأول على انه المنقـذ من المماليك ! أو الرمضاء .

بل ليكن الحاكم من يكون فسـد أم صـلح ما دام لا يتعرض للأرض أو العرض أو الرزق . أما اذا مس أحد هؤلاء فان مصر تتمرد عليه كأعصى ما تكون أمة كما يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن سعد زغلول .

وليكن هناك ناس عندهم استعداد أو موهبة الحكم . هل معاوية فى التاريخ خير من على ؟ ان أصحاب القيـم عادة لا يصلحـون لحمل العصا . لقد رفض كثير من القضـاة ، القضـاء والولاية

ومنهم رجلنا الليث بن سعد . لقد عرض عليه حكم مصر فرفض كما رفض القضاء ولكن السلطان والقاضى كان كل منهما يغشى فى نوائبه وحوائجه مجلس الليث التماسا للرأى أو التأييد فان استحقه جاد عليه به أمام مصر وفقيهها . واذا أنكر رجلنا الليث من السلطان أو القاضى أمرا كتب الى الخليفة فما يلبث أن يأتى الحاكم ، **العزل!**

لقد كان الليث ينهى عن مدح السلاطين وقد تكفل بمنصور ابن عمار حتى لا يقف بباب السلطان ويمدحه رغبة أو رهبة .

ان استمرار مصر فى صناعة الحضارة كان فيه رضى نفسها . فالخلق والابتداع والتفنن هواها وهوايتها منذ القدم .. أما الحكم فلم يكن يهمها منه كما قلت الا العدل فيها والتعفف عن أموالها أو عدم الجشع والسطو . كان الحكم فى نظرها مهما بلغ وظيفة ادارية لا فن فيها حتى لتسميه فى سخرية لا تخفى : (الضبط والربط) .

من أجل هذا كله زهد المصريون فى الحكم واعتزوا بالسلطات الحقيقية : السلطة الروحية أو السلطة الأدبية والفنية .

ان السلطان الحقيقى فى عين مصر هو الفنان الذى لا سلطان لأحد عليه ولو كان من أهل الحرف .

ان الواحد من هؤلاء اليدويين (معلم) ، ولمعلميته أصول وتقاليد ، وله احترام خاص وسمت معين . وحين فتح سليم الأول مصر جمع هؤلاء المهرة والفنانين وحملهم معه الى القسطنطينية . ودلالة هذا بهر الغالب بفن مصر بهرا يسيل لعابه حتى ليعجز عن مقاومته ... ولم يؤثر عن سليم أنه أخذ فنانين وصناعا من مكان آخر فى الشرق كله ..

اعتبار آخر ... **ان المصرى حريص على ما يملك ..** يبقى ويصون . الخبز فى مصر دون سائر البلاد (نعمة) و (عيش)

والمصرى لا يرمى لقمة ... واذا وقعت منه على الأرض ينحنى يلتقطها ويرفعها فى محاذاة عينه ثم يقبلها ... المـاء نعمة والأرض نعمة النعم ... والمصرى لا يبهدل النعمة . ولهذا يفكر ألف مرة فى (كيفية) رد العدوان عليه ... ان الروسى يحرق الأرض بعد ان ينسحب منها حتى لا ينتفع بها المغير . ولكن المصرى فى الغزوات التى ابتلى بها كلها لم يفكر مرة واحدة فى حرق الأرض ... كيف ؟ انه يعشقها .. لا يهون عليه حرقها ... السلب أهون ولو انه أحلى المرين . انه واثق أنه سيجمع أمره ويستردها ... مآلهـا اليه وحده فلا يشوه نصره المأمول بأضرار المحبوب .

والمصرى لا يقامر ... حين طلبنا وقف القتـال سنة ١٩٦٧ الحزينة كان هم مثقفينا ، القاهرة .. الخوف على كنوز التـاريخ فيها كما أعلن الفرنسيون ، باريس مدينة مفتوحة .

لكل شعب طريقته فى المقاومة وفلسفته .. الشعب المصرى كان ينظر الى الحاكمين نظرة الشاعر فى أعماقه بقيمته وحضارته وتراثه ووراثاته الى البرابرة الذين لا يملكون الا العضلات . فكان همه كله أن يحافظ على ذاتيته .. على قيمته وحضـارته وتراثه ووراثاته باتقاء شرهم أو اعتزالهم لاسيما اذا اتقوا ظلمه ...

كان المصريون يعتبرون بعض الغزوات وفادة همجية دفعتهـا قسوة الطبيعة فى بيئتها الى الوادى الأخضر .. وبهذا تكون مصر أقلمتها مثل الغزوات التى جاءت من الغرب كغـزوة الهكسوس الذين عنتهم مصر بكلمة (المحرومين) ، على الرغم من انتصارهم واستيلائهم على الدلتا . وهى صفة توحى باعتزاز النفس المصرية بذاتها المعنوية والمـادية ... بذاتها الحضـارية حتى ولو غلبت سياسيا ... فغزاة مصر اما « محرومون » يتطلعون الى الرخاء المصرى أو «برابرة همجيون» يطمعـون فى (الملك) المصرى .. ومن هذا المفهوم تتبع لفظـة الهكسوس التى أطلقتهـا مصر على الآريين الذين هاجموها من الشمال الشرقى .

والمصرى دعونا نقولها واضحة وصريحة .. المصرى حكامه لم ينصفوه فالحكم مفسدة للقريب والغريب .. لعل المصرى عند الغزو قال فى نفسه : أيموت دفاعا عن كرسى هؤلاء ؟ من يدرى لعل هذا منبع حكمته التى تقول (ما يموت على السد الا قليل الفلاحة) .

ما دام الشعب المصرى لايغنم من الحكم مغنما حقيقيا فليتصارع على الحكم المتصارعون أيا كانوا، وليعكف هو على عمله الذي يحبه ويحقق ذاته فيه .. ان حكمته واقعية لا نظرية وكم فى أعماق البسطاء من حكم ...

فلسفة الشعب المصرى أن يتقوقع على نفسه النفيسة ويصيغ من دموعه فى محارته أو عزلته ، لؤلؤة .. فنا وصناعة وطرقا . يتوارث مهارتها خالفا عن سالف ويعتز بمعطياته فى هذا المجال فيجعل كما أشرت لكل (صنعة) حيا ومعلما .

ان الذى أمسك علينا شخصيتنا بعد سنة ١٩٦٧ أننا لم نعتبرها هزيمة أمة .. ولو فعلنا لانسحقنا . ولكننا غسلنا عارها بعد ست سنوات هى فى عمر الأمم لحظة أو بعض ساعة ...

لا كانت سنة ١٩٦٧ ... لقد جرحت الهزيمة حتى البسمات وسنابل القمح ، ورقة الياسمين ... جرحت السنين فى شيخوخة الآباء ، وجرحت نضارة الطفولة فى الأبناء ... جرحت السرور فى القلب والكبرياء .. جرحت الثقة والقدرة والاباء...جرحت الليالى ... ليالى القاهرة فلم تعد عذبة ولم تعد فاتنة ساحرة ... وبكى الفجر فى الحقول حتى بلل الصبر ، وتشابهت الأيام فلم يدر بها العمر ...

ومع هذا لم تعرف مصر ولم يعرف تاريخها حائط المبكى. .كانت مصر فى الأعوام الستة تلملم جراحها وتجمع نفسها ، وتستوعب خصائصها فى عملية تحضير للعب الدور الجديد الذى بدأ بالعبور .

هذه هى شخصية مصر التى يرمز اليها النيل والهرم ... النيل الـذى كان التشريع المصرى ينص على أن النيل اذا بلغ أربعـة وعشرين ذراعا أصبح لزاما على كل مصرى من أى طبقـة العمل على حماية البلاد من فيضه ... ولعل شعورنا العميق بوجوب التجمع والتوحد عنـد خطر النيل هو سر الحيوية المصرية التى تستيقظ فجأة عند الخطر حين لاتدل الدلائل على هذه اليقظة قبل وقوعها .

والهرم الثابت فى وقفته ، الراسخ فى هيئته ، الشامخ فى كبرياء وراءه وأمامه جـلال المـاضى ومواكب التـاريخ ومعارك التاريخ أيضا . ولكنه بعد الغزوات والكبوات والانتصارات ظل هو معجزة العلم والفن والحضارة ... معجزة مصر وشخصية مصر .

أين الغزاة ؟

ان مصر لا تموت ..

وان ما نشهده اليوم من ارادة التغيير والعمل والتحرير شاهد لا يخيب على ارادة الحياة **الكامنة** فى النفس المصرية بل التحدى للقهر والألم .. التحدى للصعب والعثرات ... وأسـلوب مصر الذى لا يتغير فى تخطى المحن هو ((**العمل**)) .

ان الحضارة المصرية كلها احتفال بالعمل . كانت حياتهم قربانا .. حياتهم نذروها للمجد ... وهنا ندرك معنى قول القائل (الموت فن) فالمنتجر عاجز عن الحياة ... عجز عن تكريس الحياة لهدف ونذرها له حتى تفنى دونه ..

لقد أدركت الحضارة المصرية منذ القدم **بالبصيرة** حكمة تغيب عن كثير من المربين ، وهى أن الانسان لا تستقيم حياته ما لم يكن فى طريقه الى غاية كبيرة ، أو يشارك فى عمل رائع ، أو هدف يثير الانبهـار ....

ان الناس يسمون المتفانى فى الذكر « مجذوبا » ثم أطلقوها بعد هذا فى غير موضعها . فكل من سخروا منه سموه مجذوبا ، مع أن المجذوب هو الذى أعطى بلا تردد فى الرجوع ... اختار ...

وقد اختار الانسان المصرى صناعة الحضـــارة ... وصناعة الثقافة ... اختار أن يضع نفسه فى مجال الخلق وأن يجعل من نفسه مرقبا ومنطلقا للتشكيل ... للبناء ... للتشوق ... للرائع والجليل ...

والمصرى الأصيل دائما يعطى نفسه للقيمة فهو عنـــدما يكون غالبا مستقرا يعطى نفسه للفن .. وعندما يكون جريحا مهيضـــا يعطى نفسه للنصر أو الشهادة .

ان شهداء المسيحية فى مصر قد أعطوا أنفسهم لمعنى ... وقد أدركوا هذا جيدا وقصدوه.ومن ثم غنوا وهم فى طريقهم الى أعواد المشـــانق ...

والمصرى الأصيل لا يعوقه شيء عن هدفه ... لقـــد كان أبو الهول فى الأصل صخرة ضخمة تعترض طريق المصرى الى الهرم فشكلها تمثالا وأحال العائق الى فن رائع ...

ان فن المشربيات الذى ابتدعه العصر القبطى كان وراءه سبب قلة الخشب فى مصر فأحال المصرى فقر الكم الى غنى الكيف ...

شكلت مصر الخشب وهو قليل عندها ، أروع ما يكون التشكيل فى تمثال ابن البلد ...

لقد نشأت التراجيديا فى الأدب الغربى ولم تنشأ فى الأدب المصرى. ولعل مقدمه نيتشه عن مولد التراجيديا تعلل هذه الظاهرة . فقد تساءل نيتشه لمـــاذا ولد بطل احدى الكائنات الاسطورية ولمـــاذا يعيش ؟ ثم خرج من حيرته بقوله : انه كان يجب (الا يولد) . وهذه

العبارة بمثـــابة رد على الموت ... على حين ان **مصر لم تعترف بالموت ...** اذن ليس هناك مأساة .

مصر من حبها للحياة تجاهلت الموت بعـــدم الذكر أو تحـــدته بالارتفاع فوقه. وبسرعة. ان قصة أوزوريس وستالتيكان يمكن انتشكل تراجيديا كبرى، نقلتها مصر الى ساحة المحكمة أو ميدان الصراع. فالحوادثمحاكمة أو نضال ... لم تقف مصر طويلا عند لحظة القتل **لانها تحيا ... لانها لا تعترف بالموت نهاية ...**

المصرى يرتفع بسرعة على حزنه الكبير .... يرتفـــع عليـــه وهو يحسه فى داخله احساسا عميقا .بللعله بقدر هذا الاحساس يكون ارتفاعه .... ان البسطاء من المصريين وحـــدهم هم الذين أثر عنهم العويل واللطم لأنهم يرون الموت ساحقا يسحقهم وهم أبناء شعب يحب الحياة ، فيعيشون طويلا فىالموقف .

ولكن الانســان المصرى الواثق عندما يحزن يستقطب ألمه فى داخله ، ويستدير هويعيد البناء ... والشواهد كثيرة من تاريخها وعلى هذا لم تعرف مصر التراجيديا ... حتى المسيحية المصرية ركزت على الأم لا الصلب ... ركزت على الأم بحس بعيد من ايزيس وهاتور ....

الفكر الأوربى يقول أن الافضل ألا تكون هنـــاك حيـــاة ... والفكر المصرى يقول الحيـــاة سرمد ولا مـــوت ... حتى كتاب الموتى لم يعرف عندهم بهـــذا الاســـم وان كان مضمونه طقوسا جنائزية ...

ان المصريين القدماء لم يرفضوا المـــوت فحسب بل رفضـــوا الشيخوخة أيضا ... ولهذا عنوا فى أهراماتهم بصـــالة تجـــديد الحياة . وفى معبد هرم زوسر رسم للملك الشيخ وهو يجـــرى حاسرا بعد أن علت سنه ، لتجديد نشاطه .

ان التراجيديا عند مصر الفرعونية تتمثل فى ذبح الثور يقدمونه قربانا ثم قال حكيمهم (عملك الطيب أحسن عند الاله من القربان) ...

اننا نلقن تاريخ مصر ولا نقرؤه وبهذا أضعنا المفتاح ... واننا لكى نعيش عصرنا بأحداثه لا بد لنا ، فى عملية البناء ، من رحلة فى النفس ومعاناة حقيقية بحثا عن المفتاح حتى **يقوم الجديد على** أساس متين من ماضى هذا البلد بما وعى من تجارب ومكابدة وذخائر .

هنا على هذه الأرض نضج الانسان والنضج وعى .. والوعى سعى ... **انه تحريك القوى فى كل مجال** ... وهذا بعينه حدث فى مصر ... **وهذا بعينه لابد أن يحدث فى مصر اليوم اذا اردنا الانتفاض والعمل ..**

لقد شكلت مصر فى « العصر العتيق » أى فى الأسرة الاولى والثانية قبل عصر بناة الاهرام ، شكلت مصر ذرات الصوان وشكلت من البللور الصخرى الوانا من الآنية فيها الحس الصافى للشكل. وليست المسألة التشكيل على ذروته ، ولكن « ادراك القيمة » .

هذه هى شخصية مصر الذى دخل بها الفراعنة ، التاريخ ووضعوا بصمتهم عليه ...

شخصية مصر التى هى وعى **بالمقدس ، وارتفاع فوق الأحداث، وطموح حضارى .**

ان الشخصية المصرية بهذا المعنى هى اعلى سد ضد التقهقر والتخلف والتفسخ فى الداخل ،وضد الهجوم والتربص من الخارج .

وان مصر التى كانت رائدة ثلاث مرات فى التاريخ مرة حين

ابتدعت الحضارة ، واخرى فى المسيحية ، وثالثة فى الاسلام عليها أن تبقى رائدة مرة رابعة وتحمل رسالة قديمةجديدة.والجدةهنا تعنى وجود الرجال القادرين على « التحريك » أو كما يسميهم توينبى : Those who know how الرجال العارفين بمنطق الحدوث اى ما وراء وجود العمل الفنى ...

هذه هى شخصية مصر ... وانا أعنى كلمة **شخصية** التى يتوسع الكثيرون فى استعمالها مع أن « الشخصية » لفظ كبير جدا فى المفهوم والدلالة حتى ليقول « يونج »، (من أندر ما يمكن أن تجد شخصية) .

الشخصية خلق جديد لا يتكرر ولا يقلد لأنها روح .. لانها عطاء .. لانها سر .

ومع هذا فمن بين أطفالنا ساذج يقول : أنا لى شخصية ! وما درى أن أمته كلها شخصيتها النفيسة قد تاهت وهى الآن تعيش فى محاولة البحث عنها ... أو البحث عن مفتاح ... لاسترجاعها ثم الابقاء عليها ثم تنميتها بمتطلبات العصر الذى نعيشه من خارجه،حين يفرض علينا دورنا الحضارى أن نستقطبه ثم نزيده بفعالية واضافات رائدة .

***

بقيت قضية :

الأقباط والمسلمون . من نحن ؟

الأقباط والمسلمون

ان المثقفين من المسلمين والاقباط يعلمون بالدراسة والوعى التاريخى ، أن مصر اعتنقت المسيحية ثم الاسلام .

المسيحية جاءت من فلسطين .

والاسلام جاء من الجزيرة العربية .

وبعد تفكير وتمحيص للدين الوافد ولموقفها هى ، اختارت مصر المسيحية بل تبنتها ودافعت عنها **بالرأى والروح** .

ولاعتبارات فصلتها فى كتاب (شخصية مصر) بل فى هذا الكتاب دخلت مصر فى الاسلام أفواجا .. ولم يكن غريبا عن طبيعتها ، ولا عن مسيحيتها . ولهذا لم يكن اسلامها مسايرة أو تسليما ، ولكن كان اسلامها موقفا واستجابة وايجابا ، فلم تلبث أن تحمست له ، ودافعت عنه **بالرأى والروح** .

وكما نشرت مصر المسيحية وأضافت اليها كما لم يفعل أحد .

نشرت مصر الاسلام ومكنت له كما لم يفعل أحد .

وبما تمثل المسيحية من وقفة مصر وموقفها ... من رأيها وشخصيتها ، نعتز بالمسيحية مسلمين وأقباطا لاننا مصريون .

وبما يمثل الاسلام من سماحة مصر وتفتحها ... من احساسها بذاتها حتى لاتخشى الجديد ، لانها بالتاريخ الطويل تعرف أن لهـا فى كل مسرح مكانها ومكانتها ... بهذا ، ولهـذا ، نعتز بالاسلام أقباطا ومسلمين لاننا مصريون ...

وامتدادا لهذا ، حين تمد مصر للعروبة يدا داعية أو مستجيبة لـما يخدم هذا من مصالحها ويعزز دورها ويسـاندها ، لا املاء من فرد ، أو تحقيقا لطموح شخص ، أو اندفاعة مريضـة ، فان العروبة هنا ، بما تمثل من رأى مصر **نفسها** ، نعتز بها اقباطـا ومسلمين لاننا مصريون ...

فلا يخلط كائن بين الدين والجنسـية ، كمـا والى فى المـاضى المسلمون(بعض منهم) الاتراك ، والاقباط (بعض منهم) الانجليز ... **لا عن خيانة** من الطرفين **ولكن عن سطحية فى التفكير والوطنية** وما منع الاسلام تركيا ، ولا المسيحية انجلترا ، أن تظلم مصر **كلها** باستعمارها ، ثم باستغلالها ، وتعويقها ، وقهرها ....

الدين علاقة خاصة بين الله والانسان .

ولكن الوطن علاقة عامة أخطر أثرا ، لان الله غنى عن صلواتنا تحت جميع الاسماء . ولكن الوطن حياته بحياتنا ، وحياتنا بحياته **مقترنة ومطردة علوا وانخفاضا** .

الاديان جاءت بعد الانسان .

ونحن مصريون قبل الاديان والى آخر الزمان .

ليس الاقباط بالمسيحية فلسطينيين بل مصريين اعتنقوا المسيحية .

وليس المسلمون بالاسـلام عربا ، بل مصريين اعتنقوا الاسلام حتى شكا والى عمر بن عبد العزيز من نقص الجزية .... فقـال

الخليفة الذى يعرف مصر جيدا لانها ربته فى ولاية أبيه عبد العزيز ابن مروان (ان الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا) ...

ولا يسىء هذا العرب بل يشرفهم . فلئن نكون مصريين أسلمنا خير من أن نكون أعدادا من العرب فى مصر ... ما الجديد فى هذا بالنسبة اليهم ؟ وما معنى خروجهم بالاسلام من الجزيرة العربية ، وتجاوزهم به الحدود اذن ؟ هل لم يؤمن به أحد ؟ . وما معنى (بعثت الى الناس كافة ؟) وأين عالمية الاسلام اذن ؟ ان لم يكن اهل البلاد المفتوحة أسلموا فهو دين محلى خاص .

والقائلون من الاقباط بأن المسلمين المصريين دخلاء ظنا منهم بسذاجة أن هذا يتيح لهم أن يتفردوا بمجد القدماء أو بشرف الانتساب الى مصر ... لهؤلاء اقول :

هل يشرفهم أن يكون الدخلاء ، كما يقولون ، يشكلون أغلبية والاصلاء هم الاقلية ؟ أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فان كل فضل للأغلبية أو للأقلية فهو كسب للجميع باعتبارنا كلا واحدا يكمل بعضه بعضا ، أمنا مصر وأبونا النيل . وبينهما يتفاوت الاخوة وقد يختلفون ، ولكن عندهما يلتقون ، واليهما ينتسبون .

وكيف يجوز فى الفهم أن يزيح الفاتحون أهل البلاد ، لاسيما اذا كان أهل البلاد أقدم تاريخا وحضارة ؟

ان جيش الفتح فى قول كان أربعة آلاف ، وفى قول ثمانية آلاف، وفى قول ثالث بعد الامدادات ١٢ الفا ، ويمتد آخرون بالامدادات الى ٣٠ الفا .

وأهل البلاد فى قول ثمانية ملايين ، وفى قول عشرة ملايين ، وفى تول ١٢ مليونا .

فلو أخذنا بأكثر الاعداد بالنسبة للفاتحين .

وبأقل الاعداد بالنسبة للأصليين .

هل من المعقول أو حتى من اللامعقول المخبول أن ثلاثين الفا ، يضاف اليهم من لحق بهم من قبائلهم ولو كانوا أضعافاً أن يمسحوا بلدا ، وأى بلد ، بلدا كمصر ، ويصيروا هم أصحابه أو أغلبيته ؟ حتى اذا تجاوزنا أن الهجرات والقبائل كانت مقترنة بشخص الوالى تخرج بخروجه ، وأن صلاح الدين الايوبى ضيق على بقايا القبائل العربية واضطرها الى هجرة جديدة الى شمال أفريقيا ؟ حتى اذا تجاوزنا هذا كله أو أسقطناه ، هل من المعقول أن الآلاف تناسلوا فصاروا ملايين ، وعقم الملايين وصاروا آلافاأو مليونا أو بضعة ملايين وفقا لآخر احصاء ؟ أى منطق هذا ؟ ولمصلحة من؟

أيهما أكرم لاخوة الوطن .. للأقباط أن نكون دخلاء أم أصلاء ؟ واذا اعتسفنا المنطق نفسه وقلنا ان المسيحيين المصريين فلسطينيون باعتبار موطن المسيحية الاول (بيت لحم) ، أين مصر اذن بين المسيحيين والمسلمين اى بين الفلسطينيين والعرب نتيجة المنطق العجيب .

ان كل عقيدة دانت بها مصر وكل رأى قالت به ، وكل عمل مارسته جزء من نسيج الشخصية المصرية ، الخطأ منه والصواب اعترفنا أم أنكرنا ... اننا بهذا **كله** ، مصريون .

المسيحية دين كتابى دانت به مصر وجعله الاسلام شرطا للايمان به . فلن يكون المسلم مؤمنا حتى يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . والانجيل كتاب الله ...وعيسى عليه السلام نبى الله .

والاسلام دين كتابى اعتنقته مصر بعد ان أصهر اليها وأعطت رسوله دون غيرها ، الولد ، كما أعطت الولد ، قبلا ، أبا الانبياء ابراهيم .

يجب أن نلقن هـــذا الكبـــار قبل الصـــغار حتى لاتكون **عقـــد ولا استعلاء ولا تفاضل ولاتناحر** يتسلل منه الينا مستعمر يفرق ليسود ، أو جاهل بالدين والتاريخ يحسب التعصب تدينـــا فيضر بالدرجـــة الاولى من يتعصب لهم بمـــا يفتح عليهم من ردود فعل أمثاله من الجهلاء فى الطرف الآخر .

هذا فى الداخل ، أما فى الخارج فالتاريخ الحديث يشير بأصـــابعه العشرة الى سلاح رهيب من أسلحة الاستعمار . سلاح الوقيعة بين شطرى الأمة الواحدة فعل هـــذا الكاتب الانجليزى جـــون بورنج John Bouring فى القرن التاسع عشر وشايعه ادوارد وكين Edward wakin فى الستينات من القرن العشرين فى كتابه (اقلية متوحدة) A Lonely Minority أو القصة الحديثة لاقباط مصر خاصة فى الفصل السادس عشر ... وان لم يستطع أحـــد أن ينكر **التمـــاثل بين الاقبـــاط والمســـلمين** حتى كرومر فى كتابه مصر الحديثـــة Modern Egypt لم يستطع الفكاك من هـــذه الحقيقة وهى أن **القبطى والمســـلم انسان واحـــد هو فى النهاية الانسان المصرى** وانى أترجم حرفيا ما قاله فى الفصل السادس والثلاثين من كتابه (القبطى من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، فى فى السلوك واللغة والروح ، مسلم وان لم يدر كيف . فالقبطيات تتشبه بالمسلمات والأطفال تكيفوا عامة وعادات الزواج والجنائز تشـــبه ما عند المســـلمين) وان كـــان يعـــزو هـــــذا فى خبث المستعمر ودهاء الخبيث الى تأثر الاقلية بالأغلبية مستمدا الشواهد من الهند بين المسلمين والهندوس . ولا أدل على تعصـــبه هو من مهاجمته فى أكثر من موضع ، مواطنه ادوارد وليم لين لاعتـــداله فى كتابه عن المصريين المحدثين !

The Manners and Customs of Modern Egyptians.

والأقباط الذين يتعلل بهم كرومر ويتذرع بهم استعمار دولته قال عنه أحد أعلامهم وهو الأستاذ سلامة موسى فى كتابه (تربية سلامة

موسى) ، (انه كان طاغيـــة عاث وعربد فى كياننا الاقتصـــادى والسياسى وعطل بلادنا عن التطــور وانه كان جاهــلا يتشـــدق بعبارات لاتينيـــة أو اغريقية قديمـــة ولا يعرف شـــيئا من العلوم العصرية الجديدة) .

وقد فصل هذا بالأرقام والاحصاءات الاستاذ رشدى صـــالح فى كتابه (كرومر فى مصر) .

ويبدو أن خلفه جورست لم يكن أقل سوءا منه . فيروى الأستاذ سلامة موسى انه ابان الانبعـــاث الوطنى فى الأمة المصرية عمد جورست الى (مناورة استعمارية هى ايجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الاقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المســلمين من ناحية أخرى على الأقباط) .

ولم يقصر كتشنر فى هذا المضمار

انه الاستعمار دائما وراء الفتن .. فهو فى مصر يستهدف الوحدة الوطنية وهو فى الهند يعمق عن عمد الصراع الدينى بين المسلمين والهندوس كما يقول الدكتور جمـــال حمدان فى كتـــابه (العـــالم الاسلامى المعاصر) مثلما عمق الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب فى العراق تفتيتا وتمزيقا للوحدة الوطنية فى الرافـــدين بل حاول الاستعمار القول بشيعية ايران قبل اسلاميتها تدميرا للوحدة الدينية بعد الوطنية .

واذا كانت المشكلة الطائفية تبدو قديمة فى العالم العربى ، فانها كما يقول الدكتور حمدان (لم تنفصل فى أى مرحلة من مراحلها عن الاستعمار : هو الذى غذاها ان لم يكن خلقها ، وهو الذى اتخذ منهـــا أداة ســـياسية يدعم بهـــا وجـــوده . وهل ننسى ، أن الصليبية — حتى الصليبية — تـــذرعت بحمـــاية الشيعة من

البسنيين (كذا !) ، فضلا بطبيعة الحـال عن زعمهـا حمـاية المسيحيين من اضطهاد السلاجقة فى الأراضى المقدسة ؟)

انى أقرأ الآن فى (الاستاذ) ــ الجزء الرابع من السنة الأولى قول السيد عبد الله النديم (حتى فى الحروب الصليبية التى تحرك لها عالم أوربا برمته وامتد قرنين وكان لمصر فيها الشـأن الاكبر واليد القوية ولم يسمع ان مسلما تعدى على قبطى مع اشتعال نيران الحروب . ولقد امتـد ذلك حتى فى زمن الحركة الأخيرة ــ يقصد الثورة العرابية ــ التى كانت مظنة لحدوث فتنة بين المسلمين والاقباط فانه لم يسمع بتعـدى احـد الفريقين على الآخر وعلى الخصوص فى بلاد الصعيد التى يسكنها معظم الأقباط . وهذا كله دليل على أن التسوية بين المحكومين تكون الجامعة الوطنية) .

ويقول خطيب الثورة العرابية فى موضع آخر :

(ومع كون الأقباط عاشوا دهرا طويلا وهم أصـحاب مشيئة واحـدة يأتمرون بأمر رئيسهم الـدينى وينتهون بنهيه فانهم لم يجتمعوا يوما لتفريق عصا الجـامعة ولا لشـق ثوب الائتـلاف ولا تنافروا مع المسلمين بسبب من الاسباب دينيا أو دنيويا ولامالوا للخروج من ظل عـدل الحكومة المصرية الى حرارة غيرها لعـدم الموجب) .

وقول عبد الله النديم يعود بنا الى الأمس البعيد والقريب . ففى سنة ١٨٧٤ عندما شرعت نظارة الحقانية فى التحضير للمحـاكم المختلطة انضم بطرس غالى باشا الى محمد قدرى باشا فى ترجمة قوانين هذه المحـاكم الى اللغة العربيـة وتعريب التشريع الذى ما زالت مصر تأخذ به الى اليوم ...

ان مصر بلـدنا معا .

لقد أنشأ بطرس غالى باشا الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١

فخطب فى حفل الافتتاح الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله النـــديم .

وأقال الخديوى عباس الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر فخف اليه بطرس غالى باشا يعرض مساندته ويقف الى جانبه .

لقد مات بطرس غالى باشا مقتولابرصاص ناصف الوردانى ، كما مات من بعده أحمد ماهر مقتولا برصاص محمود العيســوى والقــاتل والقتيل فى الحـــالين كانا يعملان لمصر من وجهتى نظـــر مختلفتين .

ودافع محمد حسين هيكل عن بطرس غالى فى كتـــابه (تراجم مصرية وغربية) دفاعا جاوز حد الانصاف الىالتعاطف .ولميتخل عن موقفه هذا حتى فى حديثه عن (اتفاقية السودان) التى وقعها بطرس غالى سنة ١٨٩٩ والتى حاول خصومه تحريف واقعهـــا ضده فى شبه اجماع على تحميله وحده وزرها الذى صنعته بعد هذا أحداث عدة وملابسات وأوضاع تلت توقيعها .

لم تعرف مصر التفرقة الدينية ... لقد خدعها الاستعمار يوما عن حقيقة قدرتها فأوهمها أنها بلد زراعى ليصرفها عن الصناعة ويستبقيها سوقا لمنتجاته ولكنه لم يستطع أن يخدعها عن حقيقـــة قيمها فانهزم فى كل مرة حاول فيها الوقيعة بين أبنائهـــا مسيحيين ومسلمين فاتحدت ثورتهم ضده بعد الاحتلال وسنة ١٩١٩ وسائر الثورات الشعبية . وظل الأقباط أبدا كما يقول الدكتور جمال حمدان (كتلة رصيفة رصينة من صميم جسم الأمة) .

ان الاسلام حضارته اسلامية نسجتهاوأسهمت فيها البـــلاد المفتوحة خاصـــة فارس ومصر بســـابقة الحضـــارة فيهما ... والاسلام ينكر العصبيات ويؤيد هذا الأستاذ صبحى وحيدة،وهو مصرى مسيحى فى كتابه (أصول المسألة المصرية) .

كما يؤيد هذا اختيار الاسلام عواصمه الحضارية فى دمشـــق وبغداد والقاهرة .

لقد ناصبت مصر ، الرومان ، العداء حين حاولوا التدخل فى عقيدتها المسيحية أيام وثنيتهم فقاتلتهـــم . وحين دانوا بالمسيحية وحاولوا التدخل فى الطقوس والعبادات قاومتهم . وتمسكت برأيها فى هذا وأسلوبها فيه ، بل جنحت الى العناد فخالفتهـــم فى الرأى لمجرد المخالفة ، خالفتهم لونا من المقـــاومة واعـــلان الســـخط والكراهية ، لونا من التحدى واثبات الوجود . وكان لمصر كنيستها الخاصة بها وبطريركها المنتمى اليها . مصَّرت مصر المسيحيـــة (واستخرجت منها نسختها الخاصة : القبطية) .

هذا حين لم يصدم العرب ابان الفتـــح ، مصر ، فى عقـــائدها وتقاليدها فعاد الرهبان من صوامعهم فى الصـــحراء الى مزاولة وظائفهم الدينية السابقة ، كما لم يتدخل العرب فى أسلوب الحيـــاة اليومية بعاداتها وتقاليدها المميزة فبقيت كما هى الى يومنا هـــذا فى الميلاد والأعياد والوفاة نمارسها الى اليوم مسلمين ومسيحيين . فليلة الحناء والصباحية والنقوط والسبوع وكعك العيـــد المنقوش وكأنه قرص الشمس الذى اتخذه أخناتون شعارا ... كلها عادات مصرية قديمة .

ان مصر تهتم بالجوهر لا بالتفاصيل .. ونحن المصريين اليـــوم نتبادل زيارة الأولياء والقديســـين دون شـــعور بالتفرقـــة أو التعصب ... كلها فى نظرنا مزارات .

بل اننا كنا فى القرون الأولى من الفتـــح نتبـــادل (قنـــاديل) الكنائس وجامع عمرو عند الاحتفالات الدينية .

وهناك أعياد تجمعنا معا أمة واحدة كما كنا قبل الأديان فعيـــد الربيع ووفاء النيل وليلة النقطة ... كل هذه أعياد مصرية قديمة صاحبتنا مع الزمن وصاحبناها الى يومنا هذا .

ان جوهر الدين فى مصر ، فى كل عصورها ، واحد . فالوثنية المصرية القديمة فى جوهرها الأصلى ادراك للخالد خلال العابر وقد وصل الخاصة عندهم الى التجريد والى فكرة الاله الواحد ..

وعلى الديانة المصرية القديمة قامت اليهودية فالمسيحية اللتان تأثر بهما الاسلام وأقرهما ... وان مصر حين دانت بالمسيحية فانما دانت بها لانها تعبر عن ضميرها بل أن الديانة المصرية القديمة فى آخر عهدها أوشكت أن تكون مسيحية قبل المسيح بما نزعت اليه من رغبة الخلاص والتماسه داخل النفس حين يئست من العالم الخارجى وآضت الى الصحراء ، وآوت الى العزلة للتأمل والتبتل . فمصر فى عهدها القديم عرفت النسك كما سنت الرهبانية فى المسيحية وعنها انتقلت الى أوربا أجل منحة أهدتها المسيحية المصرية الى المسيحية الأوربية بل يرجحون أن تكون طبيعة مصر هى التى أوحت الى اليهود بعبادة التنسك فالصحراء فى مصر شديدة القرب من أى شخص يريد اعتزال العالم .

واذ تأصل فى مصر هذا الطابع لعبت دورا كبيرا فى التصوف الاسلامى شهد به ماسينيون وبركلمان حين أطلقا على (ذى النون) واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى .

وتؤيد هذه المصادر الاسلامية ومن بينها الرسالة للقشيرى والطبقات للشعرانى والكواكب الدرية للمناوى وحلية الأولياء لابى نعيم الأصبهانى واللمع للسراج الطوسى وكشف الحجب للهجويرى وكذلك الرازى والترمذى ... جميعهم اتفقوا على أنه وحيد دهره علما وعبادة ومعرفة وأدبا .

وكان ذو النون كثير الملازمة لبربا اخميم وهى بيت من بيوت الحكمة القديمة . وهنا يلمح الأستاذ الخولى الوراثات المصرية فى حياة ذى النون وأسلوب تفكيره .

لقد جاء الاسلام ولم يكن جديدا على مصر كل الجدة فمضامينه ومفهوماته وقيمه نفذت مصراليها بصورة ما بالفطرة السليمة والدفع الحضارى معا ... ان الجنة والنار والثواب والعقاب والبعث مفاهيم مصرية قديمة ، بل أن بعض الباحثين يرجع المعبودات الوثنية العربية فى أصلها الى معبودات مصرية ... أليست عقيدة البعث وراء فن العمارة المصرية بما خلدته من اهرامات ومعابد بما عليها من نقوش وتلوين ومما ضمته من تماثيل ... أليست عقيدة البعث وراء علم التحنيط المصرى ؟

يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه (الامام الشافعى) ان قدماء المصريين (هم أول من فحص أحكام البيع والشراء واوجبوا الكتابة أو الاقرار لاثبات ما ينشأ عن العقد المكتوب ، وحرموا زيادة الفوائد على ثلث رأس المال فى السنة وعن أصل الدين مهما طال الأجل ، وحرموا الربح المركب ، ومنعوا استرقاق المدين للوفاء بدينه ... بل أن ما فى الألواح الاثنى عشر ذاتها ، من قانون طبيعى كان تقليدا لمصر) .

ومن الطريف ان مصر قبل الاسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ (سيت) هيئة خنزير وفقأ عين (حورس) فحرمت الديانة المصرية اكل لحم الخنزير .

وكان المصريون القدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتها لمقتضيات الطقوس الدينية .

والطهارة فى مصر القديمة كما جاء فى كتاب (الحضارة الطبية فى مصر القديمة) « أمر ليس بالغريب خاصة وانه نابع عقائديا » ويقول هذا الكتاب ان (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون سبيلا للصحة القومية) ...

يقول د. أ .ل. كويلاند : (بلغ المصريون شأوا من الانسانية

السمحة لايرقى اليه الشك ، واذا نحن قسنا المصريين بمقاييس عصرهم الفيناهم أقل قسوة من غيرهم ثم هم كانوا مشغوفين بالنظافة) .

وهكذا كان الاسلام كالمسيحية فيه الكثير من مألوف مصر . لقد وجد الاسلام فى مصر جوا مهيأ ... ولأمر ما تأصل الاسلام فى مصر تأصيلا لم يبلغه فى مكان آخر حتى ان مصر هى التى دافعت عنه فى مواقعه الكبرى وقامت له فيها أقدم واكبر جامعة اسلامية.

التقوى الحقيقية عند مصر هى **الحب** ... حب الله وحب المعنى .. وحب الانسان .. وحب الحيوان ... وحب الاشياء .

ان التعاطف مع الانسان والحيوان والاشياء المبثوثة صوره ورسومه فى لوحاتهم رمزا للطيبة والودادة التى تصادق كل شىء ، رمز ايمانهم بوحدة الوجود قبل الفلاسفة والمتصوفة وأصحاب النظريات لا باعتبارها عرفا واصطلاحا ، بل باعتبارها كما يقول الأستاذ حامد سعيد ، موقفا تجاه الحياة تتحقق فيه قيم ومشاعر الرواقية والمسيحية والصوفية والبطولات النفسية دون أن تكون واحدة من هؤلاء بالذات) .

التقوى الحقيقية عند مصر تتمثل فى .. **الفن** . حين جسمت عقائدها فى الروح والبعث والخلود أهرامات ومعابد ونقوشا وهكذا كان الفن عند مصر مدخلا الى الدين حين يفهم عباد النصوص من الدين معنى الخوف من العقاب والرهبة من الحساب والفزع من النار ... وقمة التمسك بالدين فى رأيهم هو التعصب له !!

وفى الفن المصرى تعانق الاسلام والمسيحية لأنهما معا ينبعان من الفن المصرى القديم . وفى مكتبة جوثا كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه (الفن المصرى الأسلامى) « فى مدينة ميونيخ رق يتضمن صفحة من القرآن بها زخارف بسيطة وأشرطة

تفصل بين السور بعضها وبعض تتضمن زخارف هندسية متأثرة بالفن القبطى الى حد بعيد . »

ان جلود الكتب فى العصر الاسلامى انما يحدد تاريخها الكتابة القبطية الموجودة على أوراق البردى المستعملة فيها .

وليس البردى وحده أو زخرفة الكتب ، بل أن التقاليد القبطية فى زخرفة الخشب استمرت سائدة بعد الفتح العربى .. ويضم المتحف الاسلامى الكثير مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

بذا يشهد المسلمون ... وبروعة الزخرفة الاسلامية يشهد المسيحيون ، فالأستاذ بشر فارس فى كتابه القيم (سر الزخرفة الاسلامية) يقول (ماأحسبك تلقى ملة كبيرة تحضرت فأنست باللطيف والدقيق من العمران ، تسلم سكناتها لأسرار دينها : وتوثق اشاراتها بأحكام مفروضة ، فوق ما أسلمت الملة الاسلامية وأوثقت) .

ومضى يفسر الزخرفة الاسلامية مستلهما روح الاسلام بما يشهد بتفوقه فيه كبار الفنانين المسلمين .

لقد استعان العرب بقبط مصر ، خارجها أيضا فاستعان بهم الوليد فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى وقصر أمير المؤمنين ، ويضيف « البلاذرى » فى فتوح البلدان مسجد المدينة فيما أعانوا عليه . وكأن الوليد يترسم خطا أسلافه الذين استعانوا بأقباط مصر فى اعادة بناء الكعبة قبل الاسلام .. وكأن مصر منذ بنى ابراهيم واسماعيل بن « هاجر » المصرية ، الكعبة آلت على نفسها أن يكون البناء على يديها فعادت الى بناء الكعبة أيام الظاهر بيبرس ، وفى العهد العثمانى ، وفى عهد محمد على .

ان أقباط مصر هم الذين بنوا أول محراب مجوف فى الاسـلام على مثال من حنية الكنيسة كما تأثر بفن مصر المسيحية فى الزخرفة والبناء قصر المشتى فى شرق الأردن الـذى يلمح الـدير الابيض والدير الأحمر بسوهاج . ومن عطـاء مصر للفن الاسلامى بعـد المحراب : المئذنة والقباب . جاء فى كتاب فن مصر خلال العصور :

(ان فنار الاسكندرية الذى بهر الغرب عند فتح مصر ، هو الأصل الفنى للمئذنة)

ان السموق الذى يزهو به النخيل المصرى ، يتمثـل فى عمود المعبد والكنيسة ومئذنة المسجد معا وكأنه شوق الى أعلى وتوق الى فوق .

* * *

لقد نهض المصريون أقباطا ومسلمين فى العصر الفاطمى — وهو العصر الذى يعتبره المؤرخون نقطةتحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية — بالفن الاسلامى المصرى نهضة فيها من احسـاس مصر ووجدانها وذوقها الحضارى ما أضفى على فن مصر الاسـلامية طابعا مميزا وشخصية فذة حتى أن بعض آثاره كمشـهد الامام الشافعى يعد كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق منعدم النظير فى مصر بل وفى العالم الاسلامى أجمع .

ومن هذا المستوى مدرسة السلطان حسن التى أشـاد بهـا الرحالة من شرقيين وغربيين وفى مقدمتهم المقريزى .

يقول الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتـابه (تكوين مصر) ، (ان طرائق الفن القبطى وأساليبه كانت عاملا من العوامل المؤثرة فى فنون مصر الاسلامية وصناعاتها وهـذا دليل آخر على أهمية العنصر المسيحى فى تكوين مصر) .

لقد تعانق الاسـلام والمسـيحية حتى فى علوم اللغة والدين.

فعن (ورش) المصرى القبطى الذائع الشـــهرة فى علم القراءات أخذ علمـــاء المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب) الأزرق بن عمر بن يسار المصرى .

ومن رجال مصر من الأقباط الذين أسهموا فى التـــأليف فى علوم العربية وآدابها :

سعيد بن بطريق ، وبنو العسال وجرجس بن العميد المعروف بابن المكين صاحب كتاب (تاريخ المسلمين) والمفضـــل بن أبى الفضائل صاحب (نهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) .

وبطرس أبو شاكر ويعرف بابن الراهب .

وابن كبر وهو شمس الرياسة أبو البركات .

وأسعد بن مماتى الشاعر الأديب صـــاحب الحظوة فى الدولة الأيوبية .

ان مصر لم تعرف الفتن الأهلية الدموية كالتى وقعت فى انجلترا فى عهد تشارلس الأول وانتهت بقتله ، والتى وقعت فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر ولم تنته بقتله فقط بل اشتدظمؤها للدماء فاستباحت الثورة عليه ، القتل ، حتى أتت على أصحابها أنفسهم . وما تخلل هذا كله من مآس فصلها الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) .

لم تعرف مصر الحروب التى دارت بين المدن اليونانية . . ولم تعرف مصر محاكم التفتيش أو ديوان التحقيق وما وقع فى أســـبانيا من الأحداث الدامية بسبب التعصب الدينى من أناس يدينـــون بدين الرحمة والمحبة والخير .

ان من يقرأ محاكمة الليدى جان جراى ملكة انجلترا يتبين أن الدافع القوى على اعدامها هو كونها بروتستينية حين كانت الملكه مارى تيودور التى حاكمتها كاثوليكية !! . أما التعـلات الأخرى فمارى تعلم جيدا أن جان جراى ذات السبعة عشر ربيعا لا يد لها فيها ولا مطمع لها ، كان ، فى العرش .

لقد عرفت مصر حياة التدين ، ولكنها لم تعرف التعصب فى الدين أو الضغن بسببه فسلم الدين فيها كما يقول الأستاذ العقاد — فى كتابه عن (سعد زغلول) — (من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية الا أن ينسلل اليهـا من طائفة غريبة أو نحله دخيلة) .

حدث فى القرن السابع الهجرى أن كثرت الفرق والنحل واشتد الخلاف بينها فاتفق رأى العلماء على العـالم المصرى الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة .

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفى مصرى **بلدى السبكى** هو الشعرانى ، وهو أصيل فى الفقه فضلا عن كونه صوفيا من الطراز الأول . وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ..) .

لم تعرف مصر التفرقة حتى فى الخصـومة ... لقد كان جيش سيتى الأول يتكون من ثلاث فرق .. فرقة (آمون) وفرقة (بتاح) وفرقة (رع) فلما جاء رمسيس الثانى أضاف اليها فرقة (ست) . وفى هذه الاضافة دلالة بعيدة المدى (فست) هو الذى قتل أخاه أوزوريس) معبود مصر والذى يرمز الى النيل والخير والخصب ولكن

عند الخطر تذوب الخصومات ، ويشترك (ست) فى الدفاع عن الوادى بل أكثر من هذا هناك على جدران المعابد صور تجمع بين ايزيس نفسها وبين ست يرفعان معا شيئا واحدا . !!

يقول الأستاذ العقاد (ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية .. فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء فى تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الاصالة والقدم عند الانتساب الى هذه البلاد) .

ويقول الدكتور سليمان حزين فى بحثه عن (سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسى أن الطابع الجنسى العام للمصريين قد وحدا واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون .

رحم الله الشاعر ولى الدين يكن حين قال :

ابنى المسيح وأحمد انتبهوا	ودعوا رجالا منكم هجعوا
أرواحكم من بعضها قطع	وجسومكم من بعضها بضع
لاتحسبن خلافكم ورعا	ان ائتلافكم هو الورع

***

وبعد المفاهيم الثابتة نأتى الى مفاهيم بل قيم شريفة فى حياتنا ولكننا أخطأنا فهمها ، فأخطأنا بدورهما فيها من اضافة وثراء ....

أول هذه القيم الرفيعة : الدين .

الـــدين

الدين أى عمارة الداخل ولا أقصد بالدين حرفية النصوص والطقوس فالدين ليس تسليما ذهنيا انما الدين ديدن الحياه .... أسلوب حياة .. موقف ديني يفسره أسلوب السلوك .

الدين كما يقول برتراند رسل وهو فى نظر الكثيرين ، خارج على الدين ، كلمة لها معاني كثيرة وتاريخ طويل .. ومن الناس متدينون دون أن يكون فى طبيعتهم أى شيء يستحق أن يسمى دينا فهم خليو البال من التاريخ أو الخبرة الانسانية التى تجعل للطقوس منهم قيمة .

ان الناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة متقاربة وأن كانت متميزة : الغريزة ، العقل ، الروح .

وحياة الروح بين الثلاثة هى التى تصنع الدين .

وما يتبع حياة الروح ، الاحترام والعبادة والامتنان للبشرية والدينونة لها ... وأعمق من هذا يستكن الاحساس بسر لا نعلم غير شطر منه .. سر حكمة مبهمة ومجدخاف لرؤيةمتغيرة الصورة تفقد فيها الأشياء أهميتها الثابتة حتى لتصبح قناعا رقيقا نرى خلفه الحقيقة القصوى لهذا العالم ... فمصدر الدين أمثال هذه المشاعر التى لو قدر لها أن تتلاشى ، لتلاشى من الحياة خير ما فيها ...

لقد قاست الروح من الجمع بينها وبين الدين التقليدى ومن عداوتها لانكار الذات أى السلبية التى يتهم بها الجاهل ، المسيحية : لأن الروح تقدس الذات وترفعها وتعيد بناءها .

حياة الروح يقينية بقدر ما هى قادرة على اغناء الوجود الفردى ... انها تمنح **بهجة الرؤية** .

ان نسمة القداسة الفرح .

البشر ايناس .. شعاع من الرحمة .. عطاء من الحب .. خصب حتى ليقول الشاعر البسيط :

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

ولأمر ما سميت الانسانية ، بشرية

والى البشر نسب الله نجاح الدعوة الاسلامية (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

ولهذا كان أقصى وأقسى عتاب للرسول الكريم الآية (عبس وتولى) .

هل جربنا مرة أن نرسم قرن الخروف مثلا ؟ وأن نرسم المحارة؟ وهل لاحظنا الشبه بينهما ؟ انالجزء الأعلى من المحارة يشبه القرن ولكن الفرق ان القرن فى حركته المنحنية يعتصر نفسه من العذاب ثم لا يزيد فظل جزءا من حيوان . حين تجتاز المحارة مرحلة العذاب الـ twisting هذه وتنفتح على البحر ... البحر الكبير الواسع فاحتوت أغلى ما فيه ... اللؤلؤ ... وصارت هى وما تحتويه متعة وزينة وثراء كبير ...

فليس من الدين اذن الكآبة أو الدروشة ، والمخرقة ، والعجز . والحرمان .

ان الروح تحرر أولئك الذين يثابرون عليها من سجن العاطفة الشخصية التى تعكف على الاهتمامات الدنيا .

هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الانسان ولعلاقته مع الآخرين .

انها تهيىء الحلول بشروقها
انها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة
وترد الشارد الى مكانه من حياة الانسان

ان السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا الى هذه الدنيا الا عن طريق الروح .

لقد كان « نيتشه » غريزة قوية وعقلا جبارا . ولكنه افتقد لمسة الروح، فقضى سنيه العشرة الأخيرة فى مستشفى الامراض العصبية.

ان مشكلة فلسطين لا تحتاج الى ذكاء يدرك عدالتها ومع هذا هى مشغلة الأذكياء من أقطاب العصر لانهم أذكياء العقل لا القلب والروح .

يتساءل « اقبال » هل الدين أمر ممكن ؟

فى رأيه أن الدين تجربة ... سعى صادق صحيح يمحص مستوى الانسان. انه تجربة ، كالعلم سواء بسواء ، فى محاولة كشف الذات بوصفها فردا أعمق من نفس الفرد العادى القابلة للوصف التصورى .

واذا نظرنا فى كتاب The View of Life الذى ألفه رادها كريشنا والرجل من أصحاب النظرة البانورامية الى الثقافة البشرية، وجدناه يعرف الدين بأنه أمر داخلى وشخصى يوجد رابطا كل القيم

ومنظما عضويا لكل الخبرات .. انه استجابة (كل) الانسان (لكل) الحقيقة .

فليس الدين الرؤية الخلقية فحسب .

وليس الدين الرؤية الصوفية فحسب .

وليس الدين شكلا من أشكال المعرفة كما يقول هيجل ، والدين ليس مجرد ظاهرة اجتماعية .

عرف وايتهد وهو أستاذ برتراند رسل ، الدين ، بأنه أمر توحدى فاذا لم تتوحد على الاطلاق فلست متدينا على الاطلاق . فالدين هو وعى الانسان بفرديته .. بقيمته الانسانية الشخصية ...

هذه نظرة الهند الى الدين .

أما الصين فتقول بالتاو .

والتاو عند الصين يستحضر فى الضمير ويتوحد معه . وهو صفاء ونقاء ينبع عنه الانسان الطيب الفاضل .

وكما تتطلب التجربة العلمية التجرد من العواطف الشخصية لتحقيق الموضوعية ، فان التجربة الدينية تتطلب صفاء النفس لتحقيق الرؤية البعيدة التى تتكشف الحقيقة .

يقول لاوزا (٤٠٠ سنة ق.م) حكيم الصين و (لكل قوم هاد) :

(قبل أن تخلق السماء والأرض ، كان شيئا بلا صورة ولكنه كامل .. صامت .. خلاء .. لذاته كفاء .. لا يتغير .. قادر على التحرك فى كل اتجاه ولا ينفد .

انه أم أو أصل لكل ما تحت السماء أو على الأرض .

نحن لا نعرف كيف نصفه .

كيف نسميه على وجه التحقيق .

ولكى نكتب عنه نسميه (التاو) .

واذا كان لابد من وصــفه فنقول الأكبر والاسمى يغــذى كل الأشياء ولا يتعالى .

غنى عن الجميع .

ولمــا كانت كل الأشياء له بلا ادعــاء فهو الاكبر لا يستــدعى وتأتى اليه الأشياء تلقائيا) .

وحكمة الصين حكمة بلد الخزف الذى أخذ اسمها فى كل مكان وبلد «صينى» . حكمة قوامها المــاء والاناء ... الاناء الذى تقول عنه الصين انه (لولا الفضــاء من الهواء داخله لمــا انتفــع به الانسان) اشارة الى التجرد من الأهواء الشخصية .

اما المــاء فيتمثل حبها له فى لمسة الريشة للحرير .

ولمسة الخزاف للاناء .

ومن حبها المــاء تنحدر حكمتها مترقرقة تقول (كن كالمــاء تنزل من السماء لتستقر فى منخفض بئر أو مجرى ماء) فى محاولة للحث على التواضع .

هل خرجت هذه النظريات كلها والأقوال جميعها فى مضمونهــا عن معنى الخير ؟

ليست المسيحية يوم الأحد ولا الاسلام يوم الجمعة ... الدين قيمة يحققها المتدين فى حياته ... يظلم المسيحية من ينسب اليها ذلك الذى ألقى قنبلة على هيروشــيما . وهنــا نفهم سر تفريق

الغزالى بقلبه الرهيف بين العلم بالقيمة قبل الاتصاف وبعد الاتصاف أى عن معاناة ذاتية وخبرة داخلية وهو يقصد الاتصاف بالصدق .

اننا نهوى أن نتكلم عن الأديان فى قضاياها العقلانية .. مثلا : واحد أم ثلاثة أقانيم ! لندع هذا فان عز المسيحيـة فى موعظـة الجبل . هلا قرأنا الى جانب القرآن الكريم ، انجيل متى خاصـة الاصحاح الخامس والسادس ...

ان التدين الخارجى .. تدين الطقـوس كالثقافـة الآن ... حلية ... مكتبة . لكن ماذا دخل من هذه المكتبة فى كيان صاحبهـا والى أى مدى وصل به الى ذرى القيمة .. الى الأفـق الاسنى والأسمى .

احتاج أحد الصحابة عملية كى مؤلمـة فى موضـع من جسمه وكان يتهيبها . فأشار أحدهم متهللا كمن وجد الحل ، بأن يتم الكى وهو ساجد يصلى حتى لا يشعر به .

قد تكون القصة رمزية كما أرجح ، ولكن تبقى دلالتها وهى **الاستغراق** .

ليس من الصلاة اذن الجهر والصياح والتظاهر بالتقـوى رئاء الناس واشتهاء المدح .

كان الحكيم المصرى امينوموبى يقول :

(صل من قلب مبتهج تظل فيه كل الكلمات مختفية فهو يصنـع ما أنت فى حاجة اليه) .

الصلاة صلة ... خلوص .. خشوع .. استغراق كامل .. كم من المصلين الآن يقفون على عتبة هذا الاستغراق ؟

والوضوء هو تحضير النفس للوقوف بين يدى الله ... وهـو أبعد من النظافة الظاهرة على قيمتها ... انه تطهير للحـواس كلها مما تكون قد أتته من مشاهدة الباطل ، أو قول الزور ، أو

مس المحرم ... انه غسل للنفس كلها قبل الوجه أو اليدين الى المرفقين .

ان قيمة محمـد ليس فى انه كان ناجحا بالميزان الأمريكى أى تاجرا كاسبا ، ومتزوجا من سيدة ثرية (سـقع) ومحبـوبا فى مجتمعه ، ولكن قيمته انه بعد هذا اختار المطلب الشاق .. البحث عن الحقيقة ... فتعبد فى غار حراء .. عزلة للتصفية والرؤية .. سياحة فى داخل النفس ...

ان خلوده الى غار حراء من أجل الحقيقة يعلمنا أهمية العزلة الى جانب أهمية الاتيكيت فى المجتمع .. لعلنا ان لم نصـل الى الحقيقة فلا أقل من أن نشارفها .

الحقيقة رؤية عندما يتطلع اليها الانسـان يعطى عطاءه ... فالفنان يبدع الرائعـة الفنيـة ، والفيلسـوف يضـع النظـام الفلسفى ، والعـالم يضـع النظـرية ، والحقيقـة ذاتهـا من الكثرة والوفرة بحيث تعـير الفلسـفة والعـلم والفن والقصـة والمسرحية وسائر الالوان ثم يتبقى منها غزير لا يدركه الادراك .

وهنا ندرك قول اينشتين بأهمية الخيال .. فالخيال شـوق الى الحقيقة . وبالطبع أقصد خيال الرؤى لا خيال التوهمات .

وقـد انتشر الاسـلام بالخيال الذى هـو ايقـاظ النفس الى الحقيقة .. الى الجوهر ...

(أينما تولوا فثم وجه الله) .

فرؤية القرآن لله ، رؤية محيطه . ان القـرآن الكريم حافـل بالصور ولكنها ليست للتصوير الحسى ... انها رؤى ممتدة . يقول الله تعالى : (كلمة طيبة كشجرة طيبة) كيف تصور هـذه الآيـة ؟

وقبل العلوم والفنون كان حوار رائع بين الانسان والحقيقة.. تتغير وسائل البحث ويكون بينها ما بين منطق العلم .. والخرافة. ولكنها كلها تسعى الى الحقيقة باسلوبها .

والاسلام رؤية جديدة للحقيقة ، فحين تستحضر المسيحية ملكوت الله فى القلب البشرى ، يستحضر الاسلام ملكوت الله فى داخل النفس وخارجها وما وراء المحسوس . وحين تمثل الفن الاسلامى هذا المعنى خرج خلاصة مقطرة للحيوية وللحياة .

ان التوحيد ليس شهادة ببغاوية كمايفعل كثير من المسلمين ، ولكن التوحيد ذروة من الادراك الوجدانى والذهنى ، فهو فى العلم اجماع وتوثيق ... وهو فى الصحة النفسية يعنى تكامل الشخصية ... وهو فى السياسة يعنى أن الكل فى واحد .. وهو عند الشعراء والفنانين والمتصوفة يعنى وحدة العمل الفنى .

ان الوحدة علامة القيمة .

وقد حقق الفن الاسلامى الوحدة فى تنوع ... كما أن روائع مصر القديمة شاهدة على التوحيد والتنزيه ولكنه تفكير الخاصة كأخناتون والفنانين وهذا يدلك على أن الاسلام دين الفطرة السليمة فى كل زمان ومكان .

الاسلام دين الفطرة ... فالفطرة السليمة تهتدى اليه بلا نصوص كما فعل حى بن يقظان ... لقد شرح ابن طفيل المسألة عقلانيا ولكن التجربة الدينية التى أريدها ، بصيرة ... انفتاح لا يعادى العقل ولكنه أبعد منه مدى ... انفتاح يرى الخلد لا يعنى استمرار الزمن ولكنه يعنى ما وراء الزمن .

الصلاة صلة بين الله والانسان وهى فى الاسلام تطهير للذات وانفتاح بها للنور...ورفع اليدين فى الصلاة استشراف الى العالى.

الى السامى فى عملية مجاهدة وخلوص ... وهذا يفسر الآية الكريمة :
(الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لماذا ؟ بفضل هذا النور .

ومن توفيقات العامية انها تسمى negative الصورة (عفريتة) لانها سوداء معتمة . والشيطان أو العفريت هو عكس الله نور النور .

يقول كارليل Karlile فى كتابه (الابطال) لو لم يكن محمد نبيه (حقة) صدق لما استطاع دينه أن يعطى هذه الحضارة كلها ...

ولكننا بمواضعات عصرنا وواقع سلوكنا بعيدون عن التوحيد ... كل منا له هوى وكل منا يتخذ إلهاه هواه وهى وثنية .. الجاه وثن .. والوظيفة وثن .. والهوى وثن ... والشهرة وثن ... والتعصب وثن ... ونحن نعيش فى هذه الأوثان على الرغم من الاديان حين يقول اندريه مالروا ... ان المستقبل للدين .

الدين جميعا .. فالدين خير كله ... لقد درس الدز هكسلى فلسفات الهنود وبوذا ومصر ويونان والمسيحية والاسلام وخرج من هذا كله بأن الكل يلتقون عند وحدة الوجود كما يقول فى كتابه: Perennial Philosophy

ان الضلال هو عدم وجود معنى الوجود فى النفس ....

الدين حقيقة كبرى والحقيقة كالعروس ومهرها رياضة النفس التطهر من الشوائب والاهتمامات الصغيرة فى حياة كل يوم ... فالله حين يقول عن القرآن الكريم (لايمسه الا المطهرون) لايقصد (اللمس) ، ولكن يقصد اللمسة التى تشعل الروح وتسعد القلب وتفتح للنفس آفاقا بعادا ...

وهذه اللمسة لا تتحقق الا بالصفاء فيتكشف لصاحبهـا المكنون فاذا به قد ابصر بعـد أن رأى . وما ابعـد الفرق بين النظر والبصر ... لقد انتظر الصينيون بوذا طويلا ليعظهم فلمـا أقبل عليهم رفع فى يده زهرة ولكنهم رأوا ولم يبصروا ، اذ سألوه أن يعظهم ولكنه صمت صمتا نبيلا كمايقول الانجليز

He mentain a noble silence

ويسمون هذه القصة Sermon of the flower

قـال الله تعـالى لموسى (اخلع نعليك انك بالوادى المقـدس طوى ...) انها دعوة الى نظافة الروح والبـدن حتى يستطيع المرء أن يقترب من الرحبات العليا .

فسر الرازى القرآن فى ٣٠ جزءا .. وذات يوم راى فى المنـام انه دخل الجنة .وانه سئل اتعزف لمـاذا دخلت الجنة ؟ فقال على الفور كأن الأمر بديهى :

ـ لاننى فسرت القرآن .

فقال صاحب السـؤال : لا ولكن لانك صـبرت على ناموسة وقفت على قلمك تشرب منه

وفى هذه دلالة كبيرة وعميقة . فان العطاء من اى حجم ولون أقرب الى الله من تفسير القرآن ... والحرية أكبر من العطاء .

هذا هو معنى الدين .

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطية محتاجا

***

كان أحمد بن حنبل يحدث ابنته كثيرا عن الأمام الشافعى على انه الأمل المرجى والرجاء المـأمول .

وذات يوم زار الشافعى ، الامام أحمدبن حنبل وبات عنده .

فلم تنم الفتاة وأطل فضولها كله وفضول النساء من عينيها ترقب

حركات الشافعى وسكناته ... وبعد ساعتين قام أبوها من نومه وتوضأ وأخذ يصلى الليل كله .... ونظرت الفتاة الى الشافعى فوجدته نائما أو هكذا يبدو ...

وفى الصباح سأل أبوها ، ضيفه ، الشافعى :

ـ كيف قضيت ليلتك .

ـ على خير ما يقضى الليل ... لقد حللت وأنا مستلق على ظهرى مائة مسألة مما يهم المسلمين .

هذا هو الدين فى قمته التى تعلو كثيرا على القيام والقعود ...

ان الذى يشغل كثيرين من المسلمين اليوم هو (نقض الوضوء)! مع أن هذه المشكلة الخطيرة يحلها كوب من الماء ... كوب واحد فقط يغسل به الوجه والكفان .. المكانان الظاهران والمعرضان لما يغسل من أجله .... والا فلماذا يغنى التيمم عن الوضوء أحيانا ؟ ان المسألة اعداد ذهنى .

دعا الأستاذ لطفى السيد ، وكان وقتئذ وكيل نيابة المنيا ، الشيخ محمد عبده فى طريق عودته من الخرطوم ... وحشد له علماء المدينة تكريما له . فاذا بهم يشكون له مر الشكوى من متاعبهم فى العمل أى فى الوعظ والارشاد . فلما سألهم الأستاذ الامام ، السبب ، قال قائلهم :

ـ اننا نزيد ونعيد للناس فى فرائض الوضوء دون جدوى ... عبثا نقول لهم (يغسل الوجه من منبت الشعر حتى أسفل الذقن ، ومن شحمة الأذن اليسرى حتى شحمة الاذن اليمنى ....

ولم يدعه الشيخ محمد عبده يمضى فى الكلام أكثر من هذا .. وقال قولته المشهورة :

ـ يافضيلة الشيخ .. كل واحد عارف وشه من غير مساح .. هندق للراجل حديده فى جبينه !!

* * *

ان البربرية ليست اللون بل التحطيم وعدم الانتاج .

وحين قدس الدين العمل ، حنا على الخطأ الذى يعنى « التجريب » . فليس من الدين الوعيد والتهديد بعذاب الآخرة فى الخطب المنبرية المحفوظة أو المنقولة من الأوراق الصفراء البالية.

فان هروبنا الحاضر من المسئولية سببه تركيزنا على خطورة الخطأ عند الأطفال فى المدارس ، وعند الكبار فى المساجد .. كل خطأ عيب وخطير وجسيم . لماذا ؟ ان الخطأ طبيعى .. والتجارب والخبرات مجموعة أخطاء ... ولهذا فطفلنا عندما يكبر يخاف من المبادرة والعمل حتى لا يخطىء لانه طبع على جرم الخطأ ...

هل سمعت قول النبى (ص) ، (من اخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران) . ما معنى هذا الا أن يكون قد عنى جواز خطأ التجريب والمحاولة والاجتهاد ؟

ليس لنا أن نخاف من الخطأ أو حتى الفشل . فما التجربة والخبرة الا مجموعة أخطاء سابقة تعلم منها أصحابها ، الصواب.

وحين يعمل الانسان آمنا من الرهبوت والخوف فانه يقبل على عمله فى حماسة وفرحة .

وسعادة المرء فى عمله ، الطريق الوحيد الى الانتقان .. كان يشرف على حفريات سقارة مدير يقول :

(عندما أسمع دقة الازميل حزينة ، أعرف أن هناك خطأ فى العمل ، وعندما أسمع دقة الأزميل سعيدة ، من سعادة العامل ، أعرف أن العمل مضبوط) .

اننا اذا قرأنا كتاب (بستان الرهبان) التقينا بهـذه العبـارة (محبة التعب عون عظيم) ... هنا نسمع صوتا مصريا ...

زرت يوما سـقارة ومعى طفلتى فنظرت الى نقوش المعـابد وسألتنى :

لمـاذا كل هذا الفن فى القبور ؟ وكان جوابى فى اختصار :

ــ انه حب الحياة لا الموت .

وحين زرنا معا معبد ميراروكا ، أخـذت تهرول بين الحجرات وتعد ببراءة ، حتى اذا فرغت من العد والاعادة سألتنى كالمأخوذة:

ــ ان بالمعبد ثلاثة وثـلاثين قاعة مملوءة بالنقش واللون ... هل تحتاج الجثة كل هذا المكان برؤاه وحلاه ؟ وصدقت ، ان المقبرة عندهم لا توحى بالحزن .. انها متحف للفن يسعد الرائى . وتؤكد اعتقادهم بوجود الروح .

ان الاحتفال بالعمل فى فرحة وغنائية ، ظاهرة يندر وجودها فى فن آخر ... وحركات العمل على الجدران ليست من نثر الحياة بل هى من شعر المسرح أى « باليه » ...

ومن معجزات الحضارة المصرية أنهـا حققت هـذا كله بأبسط الوسائل .. وهو درس يجب أن نعيه لنتعلم معنى الارادة ، والعزم ، والطموح والاصرار ...

هذا هو الكفـاح الذى نريد أن نطبع أولادنا على الايمـان به ليتسلم الشعلة جيل أفضل ، **يعيد كتابة التاريخ** .

***

ان الاعلام يركز على القيمة الاقتصادية للعمـل وينسى دائمـا **القيمة الانسانية للعمل** ... العمل المترع ببشرية العـامل ...

أى حب صاحبه له ، لا العمـــل الـــذى تستطيع الآلة الاليكترونية أن تؤدى أضعافه ..

ان الحضارة قيمة .

فالذى يتكلم أثناء انعمل لا يعرف آداب العمـــل أو كرامته .. آداب العمل هو الخلوص له . و**الخلوص نقطة** لا ترى ... نقطة تلاقى الكيان الانسانى بمذخوره ، مجمعا ، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة .

هنا يكون العمل **عطاء قلب ... وفيوض روح .**

ان العمل الحديث لم يستأنس بعد ... انه يضفى على الانسان خيرات مادية ولكنه يسلبه انسانيته ... أى يحوله الى آلة .

لا استغناء عن الآلة .
لا عود الى الوراء .
ولكن ما نريده هو **استئناس وتصحيح للآلة .**

لقد قتلنا .. كمـــا يقول هكسلى ، « الكرافت » أى الصـــنعة اليدوية ، أى **فن توليد الحب .**

اننا الآن نشيع اللاحب فى الحياة الحديثة أى « الآلية » الحاسب الاليكترونى حين يحرر الانسان من الأعمـــال الصغيرة ، مقبول كما حررت المطبعة ، المؤلف ، من النسخ .

ولكن العقل الاليكترونى حين يلغى عمل الانسان أو يطغى عليه مرفوض . **ان العمل ايمان .**
ونحن حين نتهم الشباب بقلة الايمان ، ننسى أن السبب أولا : قلة العمل .
لـــاذا كانت حضارة مصر دينية ؟
لانها عملت فذاقت حلاوة العمل فارتبطت بمعنى الكون .. ولهذا

تجد أشد الناس ايمانا ، الزارع ، حتى ولو كان أشدهم تخلفــا أو فقرا لأن الزارع يحنو على الأرض ويحننها ويستولدها ....

***

الدين يأمرنا بالنظر فى ملكوت السماء والأرض فى محاولة لقراءة الافكار ... أفكار الناس أقصد وأفكار الأشياء ... ان الدنيــا عوالم شتى وليس عالم الانسان بأوحدها ... هناك عالم الحيوان وعالم الحشرات ... هناك عالم الأفلاك وعالم البحــار أما مملكة النبات فعالم رائع له عقل كلى كما يقول اخوان الصفا .

حتى الفضاء ليس خلاء كما يبــدو للعين المجردة .. انه حقل نشاط .. وهذا النشاط عندما نتلقاه بحواسنا البشرية ، يبــدو الوانا مختلفة ، ومرئيات ... فزرقة السماء ليست فيها ، ولكن فى عيننا بتركيبها ووظائفها وخلاياها .. تماما كما نقول ليس الألم فى المطواة ولكن فى حركتها من جسم الانسان...

يقــول الدكتور حامد جوهر فى مجلة المجمع العلمى ، انه عصر البحار لا الفضاء . هبهم وصلوا الى الشمس فليس هذا الوصول أعماق الفضاء ...

انه كما تنبش دجاجة فى الأرض وتحسب نبشها «بحثا جيولوجيا»

يقول الدكتور محمود خيرى على ان قطر الشمس يعادل ١١٠ مرات قطر الأرض واذا ذكرنا طوله بالكيلومترات المعتــادة فانه يبلغ مليونا وأربعمائة ألف.وان حجم الشمس بالنسبة للأرض يبلغ مليونا وثلثمائة وخمسة آلاف (١٫٣٠٥٫٠٠٠) مرة .

وهنا نقول : ما هى أمريكا أو روسيا بالنسبة الى الأرض ؟
ما هى الأرض كلها بالنسبة الى الشمس ؟

ذرة من غبار فى مدينة الشمس لو ان الشمس مدينة .

ثم ما هذا كله مجتمعا ومتفرقا بالنسبة الى الله ؟

قتل الانسان ما أكفره ... وما أجهله ... هل أوتى من العلم الا قليلا ... انه مارد اذا قيس بالميكروب الذى هو $\frac{١}{١٠٠٠}$ من المليمتر ولكن متى قيس الانسان أو حتى الاشياء بالحجم ... ان المقيـــاس ٪ **القيمة** .

ان عصرنا يتسابق فى محاولة اكتساب فضيلة علوم المـــادة أى الطبيعة والكيمياء فاكتسب الفضائل والرذائل معا .

ان T. W. A لا تقاس بالطـــائر الصغير المهـــاجر الذى يطير مسافات شاسعة على جناحه الدقيق ... هذا هومعجزة القوة . .

ان فضائل علوم الحياة ، الايمان بالقوة الأعظم .
التى تعطى من الطين الوردة والعنبة .

التى تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل
وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى .
هـــذه وظيفة الثقـــافة

تضوىء قيمة الدين وقيمة الحضارة
ان المدنية كما يقول الاستاذ مريت غالى فى كتابه

Tradition for the Future تتطلب قبل كل شىء مجموعة من القيم ، والآلات لا تمت بصلة الى القيم . وما لم تعن المدنية عناية حقيقية برفع وتحسين الانسان لا تحسين الادوات التى يستعملها فلا أمان ولا اطمئنان ....

* * *

أعرف أن الانســـان مولـــع بالخيـــلاء يزدهيه النجاح والمـــال والشهرة ولكنه حتى اذا كان غنيا ناجحا مشهورا ، ضعيف ضعيف

والقوة لله وحده .. والعزة لله وحـده أما الانســان فلن يخرق الارض ولن يبلغ الجبال طولا ... يقولون عن عصرنا هـذا مرة عصر العلم وتارة عصر الفضاء وطورا عصر الذرة ... الخ ولكن ما أطلقه الانسان فى الفضـاء وما اخترعه فى الأرض ، صـغير صغير الى جانب ما لا يحصى من عجـائب مخلوقات الله ... ان دقائق التكوين فى الحشرات التى يعتبرها الانسان أتفه الاشياءحتى ليستخدمها فى غضبه اذا اختار ، السباب ، سلاحا يشهره ! شىء مذهل حقـا ..

علام الغرور اذن ؟ ليت الانسان يرى أخوته فى الانسانية ممن تمتلىء بهم المستشفيات ليعرف قوته الحقيقية .

ليته ينظر الى شجرة واحدة من مـلايين الاشـجار المنتشرة فى الطبيعة ويتأمل روعة الخلق فى كل ورقة منها وكل غصن ... ليته يسمع سيمفونية الالوان فى روضة من الرياض أو موسيقى العبير ... ماذا يستطيع الانسان ازاء هذا كله ؟ قصاراه أن يقلد وقـد يتقن التقليد حتى تبدو وروده الصناعية وكأنها طبيعية ولكنها تظل بعد هذا ينقصها النبض والرفيف والشذى ... تنقصها الحياة .. اى ينقصها كل شىء ...

ليت الانسان يتأمل **عالم النمـل** ... **وعالم النحـل** ومواهب الصبر فيهما والتنظيم والاحكام ثم يصنع عالمه هو بما يليق بالفارق الهائل بين الانسان وسائر المخلوقات .

ليته ينظر كما قال المسيح الى **زهرة الحقل** . انهـا لا تغزل ولا تنسج ولكن سليمان بكل عظمته لا يبلغ جمالها .

ان الذى ينظر الى الناس نظرة سطحية قريبةيجد فيهم موضوعا للتصنيف والتقسيم حسب الفروق التىتبدو لعدسته الصغيرة . ولكن أولئك الذين يرتقون الى قمة المعرفة ، يرون من فى السفح

أشباها اذ تدق الفروق حتى تكاد تتلاشى ... هل يفرق النيل بين أبناء الوادى ؟ هل تفرق الشمس بين النـــاس أو حتى الشجر ؟ وكذلك البحر والليل ... وأهم من هذا كله ، الموت الذى لايرحم ألقابا أو أنسابا ... الكل أمامه سواء من تبارى الطب فى انقاذه، ومن لم يجد ثمن الدواء ...

ان الانسان الحر هو الانسان الموضوعى لا التابع .. وقد تكون التبعية لفكرة ثابتة أو متحركة .. وقد تكون التبعية لهـــوى يحجب الرؤية الكاملة .. وقد تكون التبعية لضيق النظرة فلاترى الاالظاهر القريب ... حين تطوى النظرة البانورامية المسافات والابعـــاد والأعماق .

لمـــاذا لا نعامل الفقير كما نعـــامل الامير ليشب أبنـــاؤنا على التواضع من سحر القدوة ، لان الفقير قبـــل أن توزع الأقـــدار الثروات ، انسان له المشاعر نفسها وله قلب وله أعصـــاب ... له التكوين العضوى للانسان . فما يحبـــه الواجـــد من الاحترام والتقدير والمحبة ، هو نفســه ما يتمناه الفاقد .. لأنه ، أيضا انسان .

ثم ماذا يعرف الناس عن الحياة ، وما قبل الحياة ، وما بعـــد الحياة ؟ هل أوتوا من العلم الا قليلا ؟؟ وحتى هذا القليل قابل للشك والنفى والاثبات والتعديل والتغيير .

ولكن الانسان المزهو بنفسه يحلو له أن يتعالم ويدعى التبحر فى المعرفة ، ناسيا أن العلم وصل فى علمه الى أن عمـــر كوكب الارض ألفى مليون سنة ، وأن عمر البشرية من هذين الالفين انما هو المليون الأخير ، أى أن البشرية (وارد حديث) بلغة الموضة. ترى ماذا يعرف المزهو بعلمه عن هذا المليون بل الألفى مليون الأولى

الا ليته يعرف ... لو عرف لادرك حجم الكثير الذى ينقصه...

وهنا يحضرنا تساؤل الاستاذ العقاد عمن رأى أول فجر فى سماء الكون لاح ! .

كم شروق لم نره ؟ كم أصائل كم من الزهور نبتت ؟
ان الارض ومن عليها وما عليها ليست الا كوكب فى المجموعة الشمسية وليست الارض بأكبرها ..

ان فى جسم انسان واحد آلاف الخلايا الحية ... هل استطاع الانسان أن يخلق خلية واحدة ؟

ان قيمة الانسان فيما يعطيه وفيما ينفع الناس منه .. أما بشرته ولون عينيه وفراهة جسمه فأشياء لا تدخل السرور الا على قلبه الفرد حين ينظر فى المرآة ....

وقد أكبرت الاديان (العطاء) .. عطاء القلب للحب ، وعطاء العقل للعلم ، وعطاء اليد للفقير ، وعطاء الوجه للضعيف ، وعطاء اللسان للتحية والتسليم والايناس والودادة .. حتى الكلمة الطيبة صدقة .

واذا آمنا بالعطاء فان أحق الضعفاء بحناننا المريض والفقير ... لقد بلغ الحنان على المريض ، بالحكيم المصرى امينوموبى ، أن قال (كن مرضعا للمريض) كم فى كلمة (مرضع) من أبعاد فيها من حدب وحنان ورحمة وعطاء وحب رءوم .

أعرف أن الانسان من طبعه يضيق بالمريض فخدمته شاقة وقد يكون مرضه منفرا ، والاقتراب منه فى هذه الحالة،عبء نفسى. فأى ملائكية تلك التى تمنح مثل هذا الانسان ، لا الرعاية فحسب، بل فيوضا من عطاء القلب والروح ؟

أما الفقير فهو انسان مجروح مهما بدا للعين سليما. فقدكان الأستاذ المازنى يقول : (الفقر فى المال فقر فى كل شىء) ... والانسان الطيب الفاضل حقا هو الذى يوفر للفقير ، لا أقول

طعاما أو كساء ، بل يوفر له الكرامـــة والاحترام فلا يمتهنــه أو يذله بالمن أو التظاهر بالعطاء ، ويوفر له حياءه فلا يعــوزه حتى يسأل .

ليتنا نترفق بالفقير فلا نلبس عطاءنا ثوب الحسنة المتفضـــلة بل نلبسه معنى الاهداء بوداده ورقته حتى تطيب نفسه بأخذه.

ليتنا نتجاوز عن دينه عنـــدنا أو بعضــــه ... أو حتى نتجنب طريقه المعتاد ومجلسه حتى لا يشكل وجـــودنا نداء صـــامتا أو مسموعا يتقاضاه ...

ليتنا نعطى الانسان ونعطى الأشياء أيضـــا فلهـــا روح تبــادل وتتقبل ...

* * *

هذا عطاء القلب .. أما عطاء العقل ففى شجاعته .

من محفوظاتى فى المدرسة قول شوقى :

اجـــد الشجاعة فى الجسوم كثيرة   ووجدت شجعان العقول قليلا

وحين أراد شاعرنا أن يزيد الأمر وضوحا ضرب المثل :

سقراط أعطى الكأس وهى منيـــة   شفتى محب يشتهى التقبيـــلا
عرضوا الحياة عليـــه وهى ذليلة   فأبى وآثر أن يمـــوت نبيـــلا

ومن العجيب انه ، بعد صدور الحكم عليه ، استمر يتحدث الى تلاميذه فى .... الفلســـفة ! لم يزايله هـــدوء نفســـه ، ووثوق لهجته ... ونظر تلاميذه اليه ، والى الكأس أمامه مملوءة بالسم الزعاف تنتظره ليشربها ، وقالوا :

ـ ألا تحضر نفسك ؟

فابتسم وقال : لقد عشت طـــول عمـــرى أحضر نفسى لهـــذه اللحظة .. أى يموت فيلسوفنا .

أسلوب موت .

بل أسلوب حياة .

ولكى نحكم على شخصية ، نعرف أولا موقفها من الحياة والموت . فلا تتعاظمنا مغامرات مصاصى الدماء وتجار الحروب [*] فهذه شجاعة الجسم التى قد تفوقها ، شجاعة بهلوانات السيرك الذين يخاطرون بحياتهم ، على الرغم من ابتسامتهم المرسومة ، حين يسيرون على الحبل أو السلك ، متعجلين يوم القيامة والمشى على الصراط .

ان الشجاعة شجاعة العقل حين ينصر الحق ، ويعلن الرأى ، ويحارب الظلم ، فبقراط وجاليليو وذو النون والعز بن سلام والبويطى ، وقبل هؤلاء جميعا الأنبياء ... ودعاة الحق .... هم الذين نسجوا من أيامهم حياتنا الفكرية والروحية ... حياتنا الحقيقية ...

ولكن اعلان الرأى غير التعصب للرأى ..

ان التعصب للرأى ، سذاجة .

ان الحقيقة لها أكثر من وجه فلماذا لا نريد رؤية الجوانب الأخرى للموضوع؟ قد تكون أقل ولكننا لن نضار فغالبا سنكسب جديدا ...

ليس من الدين أن نقطع الطريق اذن فى المناقشة على الآخرين بل ننصت جيدا ... وجادلهم بالتى هى أحسن وليتنا نحتفظ بالصوت الخفيض الهادىء عند احتدام الجدل فانه أعمق أثرا وتأثيرا ، مستمعين الى الآية (واغضض من صوتك) ... ان الجدل ليس الانتصار كما يفهم معظمنا لأننا ولدنا أزهريين قبل أن ينشأ الازهر ، ولكن الجدل اختيار ... ان الذكى من يعرفه

كيف يختار رأيه ثم كيف يطرحه .. ويميت فى نفسه ، شهوة الانتصار على الغير فى مناقشة بنج بنجية تتقاذف الالفاظ فيها كما يتقاذف اللاعبون ، الكرة . فان قصاراه فى هذه الحالة أن يخلف فى نفسه مرارة الهزيمة أمامه .... وما أغناه عن هذا النذير .. نعم فسوف يحفظها له ... وفى أى مناسبة تواتيه سينتقص من قدره ويهون من شأنه ليرد اعتباره أمام نفسه على الأقل .

المتدين والذكى لا يحترف الجدل فهواته خاسرون وان كسبوا .

ان السمع نوع من الكرم .. انه استقبال رأى ، واستضافة فكر جديد ... فكر آخر ... ان حسن التلقى فن .

المتدين لايتعصب للون،ولايتعصب للدين نفسه،ولايتعصب للوطن ... نتمسك بديننا ونقدس وطننا ولكن التقوى غير التعصب ، والوطنية غير انكار الآخرين فهم أيضا مثلنا يحبون أوطانهم فلا نخدع أعظم الفضائل الانسانية تغدو كما يقول V. H. Auden أسوأ العيوب البشرية ...

(لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ... اعدلوا هو أقرب للتقوى).

(ان أكرمكم عند الله أتقاكم) .

أرأيت ان الله يدنى منه أعمقنا ايمانا ، لا أشدنا جمالا ، أو أنصعنا بياضا .

(المؤمنون اخوة).

الناس كلهم اخوة لأن الاسلام اعترف بما سبقه من أديان وأنبياء ... وهو اسلام من السلام . وحين عرف رسوله ، المسلم ، لم يربط حديثه من قريب أو بعيد بالطقوس ، بل قال (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) وقال (الدين حسن الخلق) .

هذا هو الدين .

الدين دماثة فى الخطــاب ورفق ... هل من الدين ما حكــاه الدكتور طه حسين فى ، (الأيام) ، من أن شـــيخه ناداه ، وهو الطالب الضعيف الخائف من الامتحان ، (أقدم يا أعمى) ؟

فى اللغة الانجليزية حوار بين كفيف ومبصر يصف له الثلج نزولا على رغبته قائلا :

انه أبيض كثوب الملائكة

خفيف كالفكرة

بطىء كما أقبل عينيك

... ...

هذه هى البلاغة الذكية ... فالوصف الذى يعتمد على الخيال والمعنويات يسر الكفيف ولا يحرجه لانه وصف يســتوى فيه المبصر ومن أغلقت على النور نافذتاه ... وصف لا يشــعر بالحرمان ولا كذلك الذى يطعن به ....

***

الدين جعل الأمر شورى فلا يستبد انسان برأيه .... ان منح الثقة لمن حولنا يشحذ طاقتهم لخدمتنا ... فليس من الرياسة أن ندس أنفنا فى كل شىء كذلك التركى الذى كان يوما وزير أوقاف فى مصر،فحتم على الوزارة أن تعرض عليه كل ورقة صغيرة أم كبيرة. فكان يكتب على كل ورقة مهما اختلف الموضوع :

(يجرى اللازم حسب الأصول) . ولم يقل يوما ، ماهو (اللازم) وما هى (الأصول) ! مجرد تحكم .

ان الرياسة شكل تنظيمى ولهذا يقول النبى (ص) (اذا كنتم

ثلاثة أمروا واحدا منكم) وهو يعنى التنظيم لا الأمر . والنبى يعنى بهذا ، أن الرياسة اختيار لا تعيين .

دين وذكاء أن يكون الانسان مرنا متفهما رحب الأفق كبير القلب رقيق الحاشية يحترمه الجميع عن حب لا عن رهبة ... كان الشاعر الانجليزى كيتس يقول : (الشاعر لا شخصية له . فأنا اذا كنت فى مجتمع أطفال ، غلبتنى طفولتهم فأصبح بينهم طفلا . واذا كنت فى مجتمع سيدات ، أكون سيدة . واذاكنت بين أشجار ، أكون شجرة) .

لقد كان « كيتس » فى هذه العبارة على الأقل ، رقيقا متواضعا ... فالذى قاله لا يعنى عدم الشخصية ولكنه يعنى العبقرية بعينها . . ما يقوله هو الطفولة الخالدة سمة العظماء . فالانسان العظيم هو الذى يملك **قدرة الالتقاء** مع الناس والأشياء ...

ولكن هذا الالتقاء أو القدرة عليه لا تعنى المسايرة التامة ... فأحيانا كثيرة لا يعنى اجماع الناس ، الصواب ... وهنا لا يتعاظمنا الاجماع .... لنمض فى طريق الحق . أقولها وأنا أعلم أن القابض على دينه كالقابض على الجمر ... قد يسخر الناس من المستمسك بالحق ، وقد يحاربونه ، ولكنه المنتصر فى النهاية .. وقد عاش سقراط خلال القرون ، ومات قضاته وقاتلوه ...

نستطيع أن ننقد ، ونقول أقسى المعانى دون أن نسيل جرحا .. كيف ؟ هذه قصة :

تبنت سيدة طفلا . وبعد سنوات رزقت اطفالا .. وبدا لها أن تحدد الموقف . فأخذت الجميع فى رحلة ، خارجا ، فى عملية شرح للنفس قصد بها الطفل المتبنى أولا ... وفى جو متهيىء خلت بالطفل وقالت له :

ـ هل أستطيع أن ائتمنك على سر غال ؟

وأشرق وجه الطفل لهـذا اللون من الايثـار . وفرح بالثقـة والمسئولية . وقال فى حماس شديد : نعم .

هنا قالت السيدة فى هدوء وحنان وذكاء :

ـ اخوتك هؤلاء أعطاهم لى الله . وليس لى فضل فيهم ، أو فى اختيارهم . ولكننى اخترتك أنت من بين الوف الأطفال ...

وفهم الصغير كل شيء دون أن يدمى قلبه ... بل أكثر من هذا أنه غدا يعتز بدلالة الاختيار ....

الدين يعلمنا فن الصداقة حين يقول (لا تستوى الحسـنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عـداوة كأنه ولى حميم)

دين وذكاء معا أن نتفادى العداوة ما استطعنـا ، فهى تخريب للنفس مهما كان الانسـان على حق . ولأهون تخريب الخارج من تخريب الداخل ...

لنزرع الحب ونتعهده لينمو ، ليس فى نفوس أبنائنا فحسب ، ولكن فى نفوس الناس أيضا . وليس هذا بالأمر الصعب . فان القـلوب كثيرا ما يلين تنافرها بالكلمة الحلوة ، أو الهدية البسيطـة ، أو السؤال العاطف ، أو الزيارة الحفية ، أو الدعـوة الكريمة ، أو حسن الاستماع ، أو اطراء ذوق الواقف أمامنا اذا رأينا لذلك موضعا . ... وكلها أمور بسيطة لا تكلفنا كثيرا ... وتكليفها على كل حال أرحم من العداوة ... اننا لا نتسع الناس بمالنا ولكن يسعهم منـا حسن الخلق ...

أما اذا فرضت العداوة علينا فرضا فنقاوم ما اسـتطعنا الغلو فيها والمغالاة ... ان الله حين قال باسم الله الرحمن الرحيم

فانما هو تأكيد للرحمة . وكان من الممكن أن يقول الرحمن العظيم مثلا ، أو المنتقم الجبار ، ولكنه اختار الرحمة دون سائر أسمائه الحسنى ...

حتى القاسى يستحق الرحمة لأنه محروم من النـور ... نور الحب ... القاسى ليس انسانا كاملا ... انه كسر انسان لانه موتور مشروخ ... داخله شىء مكسور ... انسان غير سليم ... لم يتكامل ذاتيا ...

وهل سمى الرحم الا من الرحمة ؟ فالرحمة أسـاس الاخـوة والقرابة ...

والرحمة والمودة اساس الزواج وزاد رحلة الحياة .

انها رحمة أن يضاعف الاسلام الجزاء فى الحسنة ويقصره على المثل فى السيئة .

لقد كرم الله الانسان حين استهل القرآن الكريم بفاتحة تقتصر من دون الموضوعات الكبرى على ما بين الله والانسان ، متوجـا هذه العلاقة بالرحمة تظلل الانسان بالطمانينة من لدن (الرحمن الرحيم) .

ما هو الفن ؟

انه رحمة ورفق وحب . وما أبلغ لغتنا الشعبية حـين تسمى الصبى المبتدىء (غشيما) ، لأنه لم يكتسب بعد رهافة الاستاذية .

كتب ماريبت عن الفراعنة ، أن عاملهم كان يقطع الحجر من الجبل (وكأنه يقطعه من جلده) . وهى عبارة قد تمر عابرة عند القارىء العابر . ولكنها عند المتأمل مقياس على عدم الاستخفاف والهدر ... مقياس وشاهد عميق على الحضارة والرهافة والاحسـاس .. الاحسـاس بالقيمـة .. والاحسـاس بالأشـياء .. ومن هنا نفهم الآية (قوارير من فضة **قدرناها تقديرا**) .

لمـــاذا تعد الاسرة أصلا من أصول الحضارة كالزراعة ؟ لقـــد كسبت هذا الاعتبار بما يشيع فيها من رفق ورحمة ...

ومنذ قديم قدست مصر (الأسرة) حين أحبت أوزوريس وايزيس وابنهما حورس .

ان بداية الحضارة البيت ... البيت المبنى على الرحمة ... وغاية الحضارة أن يكون العالم كله بيتا .. والبيت بهذا لا يقل عن المعبد والكنيسة والمسجد . ولكن **الحضارة الحديثة عدوان على البيت** بتلويث الجـو بالدخـان ، وتلويث الاطمئنـان بالقنبـلة الذرية والنووية ....

الحضارة الحديثة خلقت مشاكل عمـلاقة ثم فشـلت فى خلق الانسان العملاق الذى يحل هذه المشاكل .. فهل ننتظر هـــذا الانسـان من موطن الاديان فى محاولة جـادة مؤمنة لاعادة بنـاء شخصيتنا ؟

لنسمع صوتنا للعالم المتحضر فى دعوة كبـيرة مصرية لحمـاية الأسرة وتقاليدها ...

ان كل وسائل الحضارة الحديثة بقدر ما فيها من ترفيه واسعاد للانسان بقدر ما فيهـا من مضـار ان لم يقف وراءها وعى كبير ناضج يميز الفروق بين خيرها وشرها . فان هذه المدنية ما زالت كما يقول الدكتور أحمد زكى (تجربة يمتحن بها أهلها ، كمـا يمتحن مقتبسوها . وأن أهل الغرب فى محنة منها ، بالذى تأتى به من ضائقات وأزمات ، ومن حروب ، لانها مدنية لم تبلغ بعد الغاية منها ، وبعض أهدافها قد تحقق ، وسائر أهدافها ينتظر التحقيق...

على أنها بعد هذا مدنية انسانية عالمية أساسها تحرر الفكـر الانسانى من قيوده ، وغايتها رفاهة الانسان واسعاده) .

وهكذا كما نرى المسألة مسألة تمييز بين الفروق دقيق .

ان مهنتنا شاقة ومتشعبة .

ان النصوص الدينية تعانى من الحصانة المحوطة بها .

ذهب رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله فى أمر أحلال هو أم حرام فأرشده ... ثم ذهب اليه مرة ثانية وثالثة وهو يجيبه .. ثم توالى سؤال الرجل للرسول عن الحلال والحرام. فقال بملء حكمة أصحاب الرسالات كلمته الجامعة :

ـــ استفت قلبك .

وهكذا نرى أن المسألة ليست الحلال والحرام، انما هى كما يقول الشيخ شلتوت فى تعريفه للمعروف : (هو ما تعارفت عليه الفطر..) وبالتالى فان المنكر هو ما أنكرته الفطر ...

واذا كان هذا هو رأى ذوى البصيرة من أصحاب الدين رسلا وعلماء فما بالنا فيما هو دون ذلك مما تواضع عليه الناس من عادات وتقاليد ، أو مما وضعوه من قوانين ؟

الانسان هو سيد الموقف دائما ... بايمانه واقتناعه وقيمه ومبادئه .. فكم من جرائم ارتكبت باسم الدين مرة وباسم الوطن تارة ، وباسم القانون طورا ، وباسم التقاليد حينا آخر .

هل الذين عذبوا فى محنة القول (بخلق القرآن) ومنهم رجلنا « ذو النون » الذى سيق الى (المطبق) فى بغداد .. هل هذا من الدين فى شىء ؟

هل من الدين أن يحمل « البويطى » فى غل الحديد ويطرح فى السجن مقيدا الى أنصاف ساقيه مغلولة يداه الى عنقه ؟

هل من الدين ما اقترفه بعض البابوات فى القرون الوسطى من

تعذيب « غير المؤمنين » ؟ وهم أتباع رسول السلام والتسامح والرحمة الذى وسع فى قلبه حتى « الخاطئة » ؟

أما السياسة فبحر من الدماء صبت فيه الثورة الفرنسية وعهد الملكة مارى وهنرى الرابع فى انجلترا ... كما صبت فيه من قبل الدولة الأموية والعباسية الذى سمى أول خلفائها (السفاح).

السياسة بحر من الدماء لعل أزكاها جميعا دم الشهيد ابن الشهيد ، الحسين بن على سبط الرسول .

ومن العادات والتقاليد الأخذ بالثأر فى الصعيد .. ومن العادات والتقاليد فى الهند دفن المرأة حية اذا مات عنها زوجها وكان من العادات قبل الاسلام وأد البنات فى الجزيرة العربية .

فلا نجعل للعادات والتقاليد سلطانا علينا بغير حدود ولا نجعل للقانون سلطانا علينا بغير مصلحة ظاهرة فيه لخير الناس ، فالذى وضعه انسان يخطىء ويصيب ... بل لانجعل فى الدين وسيطا بيننا وبين الله ... لنتجه اليه هو .. نستوحيه وحده ... وليكن تديننا أملا فيه ، وعلما به ، وحبا لذاته أكبر كثيرا من الحلال والحرام ... حبا ينكر فيه الانسان ذاته فيغدو فى شفافية « ابن الفارض » الذى يقول :

(نفسى فداك عرفت أم لم تعرف) .

* * *

الدين سلام فى النفس وسلام مع الناس ... هو الهارمونى الذى ينتظم الأشياء ويستقر فى أعماقها ...

هذا هو الدين .

الفــــن

ومن الدين : الفن .

وهنا فى هذا المكان من الدنيا ... نشأ من قديم، الوعى الدينى وقام المعبد بفنونه كلها ... فن التشكيل وفن الرسم وفن التلوين. وكأن الفن أو هو كذلك ، تفسير للدين ومقــدمة موسيقية له بمــا يوقظ الروح ويفتح القلب لتلقى رقائق المعانى لتطرح فى النفس وردا ... فالفن هو التقوى الحقيقية حين يفهم عبــاد النصوص من الدين معنى الخوف من العقاب والرهبة من الحســاب والفزع من النار .

ان الفن يعلم الصمت كتأمل العابد لان متذوقه يترشفه فى سكون واستغراق يســمع فيه صــوت اللون ، ونبض الحركة ، وهفهفة النسمة وهى تحرك الغصن المرسوم . يسمع فيــه المتذوق صوت نفسه الآتى من داخله والذى يغطيه صخب الكلام وضجيج الحياة.

ولأمر ما لا نجد على المعابد المصرية التى تمثل ذروة حضارة مصر فى عصور زهوها ، فمــا مفتوحــا حين كان خلق الفن وابــداعه يشغلهم عن الكلام، ويعبر عنهم بأفصح من الحروف والكلمات ...

ولعل السر فى هذا أن صحراء مصر تعلم الصمت ... صمت التأمل ليعرف المصرى الواعى ذاته ...وينظم حيويتها ... وقد وعى القدماء هذا الدرس من الصحراء ..ولكننا اليوم نريد أن نهرب من ذاتنا فنهرج لعل الضجيج يريحنا من مسئولية معرفة الذات ولوازمها ، ومسئولية العمل معا ...

والفن الذى أقصده ليس ذلك الفن **العرضى** الذى يحيط الذات بوثارة من لذائذها وأحلامها كألف ليلة وليلة ، **وانما هو الفن الخالد** الذى يحيط الذات بأفراح وسعادات بلا حدود لانها وراء الحدود.. فن معراجى ترقى عليه النفس الى الآفاق العليا .

ان الفن تكريم الحياة بالقيمة .

لقد كان أفلاطون يقول أن الموسيقى منطق الخلق حين يتسق مع الخالق.وهذا هو معنى الفن ... والتدين بتذوق الفن عبادة شفافة . وخير لنا أن نقرأ تفسير القرآن فى متحف الفن الاسلامى لا شرح المفسرين ..

فرقائق الحفر فى الخشب أغنية للشجر ..

والنافورة صلاة المياه للنور .

وعمارة المساجد صلاة تشكيلية .

مثال هذا **جامع اللؤلؤة** فى الهند المشبع بزهرية الآزهار حتى ليكاد يكون زهرة كونية كبيرة فيها أنس وايناس وشذى ... فيه سكون وسكينة ورفعة ..

وجامع برقوق فى القاهرة انه شعر من حجر ، خف وشف وعبر أبلغ تعبير . وهو بالرحابة والثبات واحساس الأمان الذى يعطيه أشبه بالمعبد المصرى .

ان المعمار الجميل فى المساجد تسبيح لله.

ان المسجد فى الهند استشفاف مجسد للمعبد الهندى أرق وأجمل بالخبرة المغمقة للاسلام بما هو خاتم الاديان .

كثيرا ما يكون التشكيل لغة ذات جرس وموسيقى وأوزان .. الاسلام عبر عنه الفن الاسلامى والتصوف أما الأدب فهو جاهلى حتى فى اسلاميته ... الأدب العربى لم يستطع — الا أمثلة قليلة — أن يسلم . وحين استهدى الاسلام ، سجع !! فأفسد السجع . ان الأدب الفارسى الاسلامى مسلم فعلا — هذا حين ملأ الفرس الأدب العربى بالبديع والمحسنات اللفظية على طريقتهم فى نقش السجاد .....

حتى أصحاب العربية المحدثين حين راموا التجديد والتحرر من القافية اتجهوا الى الغرب !

حتى الفكر الاسلامى وجد واحته وراحته عند المتصوفة ... أما اللغة فهى عند ابن الفارض ونظرائه أجمل .

على أن التذوق الفنى فحسب هواية مترفين ولكن أكبر منه تحقيق حياة المشاهد من خلال الفن وترشيدها واضاءة ضميره واكتشاف حكمة لا توجد فى الكتب ...

ان التلقين يقول ان معبد زوسر الذى صممه المهندس الفنان الطبيب الأديب أمنحتب يمر الدالف اليه بممر ضيق طويل ليخرج منه الى الرحابة الرحبة فى البناء وفى المكان ... ولكن القراءة الواعية تقول ان الممر الضيق الصاعد ببطء فى المعابد المصرية ممثلا مراقى الصعود الى مملكة السماء كما يقول كابارت ، لون من الأدب المعمارى ... انه عملية تحضير للدخول ... وتجميع للنفس ... ودعوة للصمت يفتح بعدها المكان قلبه وذراعيه .

واذ تبهر من فخامة البناء ، وايقـــاع التنـــاسب ، وبساطة الزخرف .

ينشرح الصدر(*)

وكأن الزائر سلم .(*)

فالمر الضـــيق طريق الى (المعرفـــة) الواسعة و (العلم) .
فالصمت هنا فريضة لأن المعرفة كما يقول الصوفى أبوعلى الدقاق ، توجب السكينة فى القلب كما أن العلم يوجب السكون .

وهذه هى أناقة العمارة وأنسها فى الفن المصرى .

ان الهندسة المجردة Geometry هى علم قياس الأرض . ولكن الهندسة المصرية القديمة ترتفع الى صـــفاء النفس ... عمارتها تتحول الى بستان بما فيها من نبض وخفق ودفق ومشاعر ، حتى المربع والمستطيل بمحدوديتهما بينهما حوار ودى يربطهما بالكل بشكل كامل متسق تمام الاتساق ... وهـــذا الاتســـاق فى الفن المصرى لا ينبع الا من نفس متبلورة ذات ملكـــات . فان مناسبة الخطوط بعضها بعضا فى رونق أخاذ واخراج متوافق يتطلب من المصمم كما يقول الدكتور العريان فى كتابه (مدخل الى الهندسة) : « احساسا جماليا تغذيه بعض ملكات الفنون الجميلة والتطبيقيـــة ليتكـــامل لعمله عناصر الابداع والفنية الى جوار عناصر الفائدة والنفع »

وهذا اللون من الاحساس الجمالى كان وراء الخطوط المصرية . فان الخط فى التصوير المصرى مفعم طاقة . انه تصوير بالنور على الحجر ولهذا هو ملىء بالرؤى .. ان الحجر المصرى محظوظ فلم المصرى بمـــا فيه يرو حجر مثله من وجدان مترع بالحياة كالوجدان من رى .

ان العمــل الفنى الرائع كلمة خضراء تستوعب رؤى عصر من العصور للكون بصورة مصفاة منماة . عمل تحس أن صاحبه توضأ قبل أن يزاوله وكأنه الاستجابة لدعــوة امرأة فرعون ... حقــا انه قصر من الجنة .

ان السموق فى عمود المعبد ونخلة الحقل ومئذنة المسجد شوق الى أعلى وتوق الى فوق .

ان الرائعة الفنية خلاصة تجربة الوجدان البشرى فى عصر من العصور ... الوجدان المصــفى المودع فى العمــل الفنى وكأنه سيمفونية بيتهوفن الخامسة .

والفنان رؤية جديدة للحقيقة يتفتح لها حوله وفى أعماق نفسه أن من توفيقات العرب تسميتهم صاحب القصيد « شاعرا » وهو تعريف للفنان الذى يستشعر القيمة .. ان كل فنــان شــاعر واحسب لو عرفوا فى الجاهلية الوانا غير فن القول لسموا الرسام شاعرا والموسيقى شاعرا ... أيضا ...

ومن توفيقات ابن البلد عندنا انه يصــف الكلام الجميل بأنه (يروق الدم) أو (يردالروح) .وترويق الدم صحيح حتى طبيا .فعملية « الانشراح » والانفتاح على مايعجب النفس أو الحس لها اثرها الملموس على الانســان ... أما قــوله « يرد الروح » فعبــارة تنتمى بحس بعيد الى معجزة المسيح فى احياء الموتى وليس بلازب أو لازم أن يكون الأحياء فسيولوجيا ، بل أعتقد أنه معنوى كلمسة الرحمن حين يخلق من الطين انسانا .

وبهذا المعنى يجب أن نفهم المسيحيــة والاســلام .. انهمــا فى جوهرهما روح وفن .فالفن يشف الروح .وحين تغدو الروح شفة عفة تقترب من رحاب الدين .

وهنا يكون الفن مدخلا الى الدين .

ومن هنا نفهم أزمة الانسان المعاصر . فهذا الانســان عنيت التربية بذهنه دون وجدانه ، فعجز عن ايجــاد المعــادل المعنوى للتقدم العلمى .

ان البحث العلمى الحقيقى تجربة وتجرد . وعصرنا امتــاز فى الاسلحة ومنها التليفون والبرق ... الخ ولكنه يفتقد القيمة التى تتركز فى الدين والفن والفضيلة .

ان مقياس النيل بالروضة جهاز علمى ولكنه امتزجت فيه القيمة الفنية بالعلم . وهـــذا هو الفــرق بين العصر الوســيط والعصر الحاضر ...

ان الفن اليوم فى المنفى .. اذ ليس له فى المجتمــع وظيفـــة أساسية . السائد اليوم هو فن الاعلان وفن الترفيه ، بينما الحياة الاصيلة وثيقة الصلة بالفن تعطيه ويعطيهــا ... بينهمـــا زواج سعيد وانجاب رائع ...

لقد ربى وطننا الفن ... فن الحياة وفن الفن ووصل به فى باب التركيب الى أعلى درجــات الغنى ... غنى القيمـــة ... ولكن حياتنا الفنية تصفق اليوم لفك الخط الفنى .

ان الانسان اذا حافظ على انسانيته فهو تلقائيا فنان ... ان الآلية .. الروتين .. العادة الميتة تقف بين الانسان والفنان ... الروتين أعدى أعداء الفنان كما يقول هربرت ريد .

اليوم ، الفن هو النادر .

وفى مصر القديمة كان الفن هو القاعدة .

والفن غير الفوضى والبوهيمية بل الدقة الدقيقة ... ان القول القائل ان من ليس معنا فهو علينا ... هذا القول صادق فنيا . فأى

فضول أو لغو تعبيرى ، يسىء الى العمل الفنى فــلا يصــل الى (النقاء) الذى هو أمنية الابداع .. أما النسبية فهى حل رخيص.

ان الفنان باحث كأعمق ما يكون البحث وهو يسلك كل خطوات العلم والعالم .. كل خطوات الدين ... فالفن ليس فهلوة .

أن الصناعة وهى دون الفن ، بما هى (وسيلة) التحقيــق ، تسبقها عملية تحضير وقد تكون غير واعية ... عمليــة جمــع خبرات وتحليلها .

ان معدة الفنان فى عقله ... فى جهازه العصبى يلتقط ويتغذى ويتمثل وينمو ....

حتى الفنان الشعبى دارس فهو لم يولد خزافا أو زجالا،ولكنه سمع ووعى واختزن .. كان (صبيا) عند (معلم) .

وهكذا نرى أن الفن موهبة وجهد وتحصيل وبحث وعطاء ... والمعنى فى الفن يستلزم نوعية الأداء .

والمتذوق الحقيقى هو الذى يعطى نفسه للأثر للفنى يستطيــل معه ويستدير معه ويتأفق ويترأس أى يصير أفقيا تارة ورأســيا تارة أخرى وفقا لخطوط الفن .

ان فهم الأثر استماع للفنان . وارتباطنا بالاعمال الفنية كسب لقلوب أصحابها .. والانسان الحساس كالآلة الموســيقية يبعث منها ، حتى الهواء العابر ، الانغام .. والرؤية الحقيقيــة للفن هى ابرة الجرامفون تلمس الاثر فتبعث النغم .

قلبى يدعو الله أن يهبنا نعمة البصيرة بقدر ما وهبنــا نعمــة البصر والعيون الجميلة .. فبالبصيرة نتذوق كل ما فى دنيانا من معان،لأن البصيرة قدرة على النفاذ الى عمق الإعماق ... قدرة على الحب .. على التعاطف ... المشاركة الوجدانية .. السكن

الى وجود الآخرين ... ولهذا لا أعد الامتلاك من الحب فى شيء ..
ولكن الخروج من الجلد والامتزاج بجوهر الناس والأشياء هو
الحب .. وهذا ما جعل الدزهكسلى فى روايته Bravely World
ينعى اختفاء الحس الانسانى فى الفن المعاصر فيخرج مشوهسا
كأطفال أنابيب الاختبار الذين يحلم بهم العلم الحديث حين يرى
الأمومة التى هى قمة الحب ، أعظم الحقائق التى تمس القلب
البشرى .

وهل سمى الرحم الا من الرحمة ؟

ان الرائعة الفنية هى خلاصة تجربة الوجدان البشرى فى عصر
من العصور ... ذروة تكامل القيمة فيه .. خلاصة الوجدان
المصفى المودع فى العمل الفنى .. وهذا السر المكنون لا تبوح به
الرائعة الفنية الا للبصيرة ... وقد يستتر على البصر ...

وهكذا نرى أن الفن له عمل آخر غير الخبر .. غير الحكاية ...
ان التاريخ لا غنى عنه حصيلة للتجربة البشرية، ولكن يستغنى
عنه حين يبدىء ويعيد فى ظهور الملوك واختفائهم ونشوب المعارك
والنصر الزائف فيها ...

ان التذوق والثقافة (ادراك) وراء التاريخ الذى هو وقائع ..
ولهذا لم يتوقف عطاء مصر بموت آخر الفراعنة ...

كان الرازى يقول : الفن طويل والعمر قصير .

ولكن هذا القول خيال فردى . فان الفن اذا كان حلم جماعة،
تواكبت الاجيال فى عملية تحقيقه فان الاجيال لا تموت اذا مات
صاحب الحلم .

لهذا نعرف العصر الفنى بأنه رؤية معينة .. حلم معين ابتداء
من الاشراق النفسى به الى ميلاد تحقيقه .

وهكذا نرى الثقافة الحقيقيـــة التى لا تأتى من المدرســـة ولا الجامعة ، ولكن من وجدان قادر على ادراك رهائف المعنى .

وليس معنى تركيزى على الفن أننى لا أغالى بالعلم ! فان الحياة لا تستقيم اذا أسلمت زمامها للفن وحده أو العـــلم وحـــده ، أو الفلسفة وحدها . ولكنها تسلم ويطرد مسارها الصحيح بمجموع هؤلاء ...

اننى حين أنشد النفاذ الى عمق الفن فانى فى الحقيقة أطمـــع أن ننفذ الى الاعماق فى كل شىء .. ومن هنا أرفض أسلوب المدرسة المصرية والعربية فى التلقين .. فقد يحجب المعلم ، المعنى البعيد ويقف حائلا دونه .. ومن يدرى فقد يقطع وجود المعلم ، الاتصال بين المعنى والمتذوق ...

يكفى المعـــلم أن يعطى المفتـــاح فحسب ... حتى الصـــورة الفوتوغرافية محكومة برؤية المصور نفسه ...

ان فن التذوق ، كالحب .

هل يدرس الحب ؟

الدين والفن في مفهوم مصر

ان دعوة الدين الى الاخاء يحققها الفن حين يمنح الناس كما يقول (سيدنى فنكلشتين). وعيا بالنسيج الاعرض للمجتمع الذى يعدون هم جزءا منه ، ويبين لهم كيف أن مشكلاتهم انما يشاركهم فيها الآخرون مشاركة تتم على مستوى عريض ، ومن ثم فانه يخلق شعورا بالقربى فيما بين الناس الذين لهم حياة ومشكلات مشتركة .

الاخاء الانسانى الذى يسعى الدين جاهدا الى توفيره فى المجتمعات الانسانية عبر عنه الفن أجمل تعبير من خلال بتهوفن حين كان يصغى بقوة محاولا اختراق حجب الصمم الى سيمفونيته التاسعة التى ترتفع فيها أصوات المنشدين مترنمة بنشيده للنصر، مغدقا على الدنيا فيوضا من السعادة .وهو المتألم الذى فقد أعز حاسة عنده ... انه فى هذا الموقف أقرب الى قلب الانسانية من قديس .

ان الفن وظائف بيولوجية واجتماعية لا يمكن التقليل من أهميتها، كما يقول هربرت ريد فى تعريفه للفن حتى (نيتشه): وهو أحد ثلاثة جنى رأيهم على الفن — الآخران هما فرويد وماركس — جاء

عليه وقت كان يلوذ فيه بموسيقى فاجنر ، وهنا ندرك قول توماس مونروعن الموسيقى فى كتاب (التطور فى الفنون) انها لا تقل أهمية عن الفكر فانها بما تقترن به من الايماءات وتعبيرات الوجه تصبح وسيلة للتعاطف الذى تفيض به نفوس المتحضرين أكثر مما تفيض به نفوس المتبربرين .

لقد ذكر الأستاذ العقاد فى (يومياته) ان أفلاطون كان يقول : (أن تغيير أغانى أمة يضارع تغيير الشرائع فيها) ..

ولعل من خير ما جاءت به الثورة الفرنسية هو اصرارها ، كما يقول : Franco Benoit فيما نقل عنه ارنولد هاوزر فى (الفن والمجتمع عبر التاريخ) اصرارها على (ألا يكون الفن مجرد زخرف يزين به البناء الاجتماعى) بل «جزء من دعائم هذا البناء» ...

وهذه الصلة بين الفرد والدين أدركتها مصر بما فى داخلها من احساس عميق بالمقدس والجميل فأدخلت الموسيقى المعبد واشتركت الملكة نفرتارى نفسها بآلة السيستروم .. وعن المعبد نبعت الموسيقى الكنائسية . وفى الاسلام موسقت مصر الدين حين استن متقدمو القراء فى مصر تقليدا (ألا يبدأون قراءاتهم الا من البياتى وبه دائما يختمون) .

وبعد القرآن يأتى الآذان وقد أوضح عمل مصر فيه الشيخ البشرى فى (قطوفه) .

يقول الدكتور بشر فارس فى كتابه النافد (سر الزخرفة الاسلامية) .

(على المؤمن أن يتوجه بكيانه الى الله ، فالله مصدر جذبه وغاية سعيه فى آن واحد . . وفى القرآن (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) البقرة ١١٥ .. وفيه أيضا (ذلك خير

للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون). هذان معنيان لا يفتأ كتاب الاسلام يرددهما ....

من هنا لدونة الزخرفة الاسلامية وقد آل بها المطاف بين يدى الاسلام ، أن عتقت من الواقعية الهلينية وخلصت من الصلابة الفارسية . فلا مبتدأ لها ولا منتهى ، وما يجوز لها أن تطمع فى أحد منهما ، لانها تسعى وراء الله الذى (هو الأول والآخر) الحديد ٣ ... منه تبتدىء الاسباب واليه تنتهى المسببات .

وبفضل اللدونة نرى « الوحدة » فى الزخرفة الاسلامية دوارة تارة وتارة متوترة ... وهى ، فى أكثر الحال ، تلتوى وقلما يدركها البهر ... ووجهتها ، أبدا ، ما لا حد له ، فهى ماضية بلا ملل ... وهيهات أن تبلغ ما تهدف اليه ، فشأنها شأن ايقاع يترنح منقاداً للصبر)..

وان كنت أرى مع الدكتور زكى حسن أن الوحدة فى الزخرفة الاسلامية تتوقف أحيانا عن المضى بعد أن زايلها الشعور بالخوف من الفراغ متأثرة بالفن الصينى .

ولعل الدكتور بشر فارس أحس بصعوبة التركيز فجنح الى التطبيق قائلا : (ان التفاف العرق بوروده وأوراقه ، وكذلك انبساط السطوح يقفان فجأة أحيانا ، أو يتكسران حتما على الحواجز ، عند أطراف الساحة التى تستقبل المنمق . أترى يرضى الالتفاف والانبساط بهذه الهزيمة ؟ كلا ! أما العرق فلا تختتم مداته ، وأما السطح فلا تلتحم أضلاعه ... بل كل يصل الى المدى المقدر له وهو فى فوران نشاطه : اما عند رأس انثنائه ، واما فى قلب اشتباكة ، كأنما يتأهب لاستئناف الاندفاع ، فيدعوك الى أن تثب وراءه فى الخلاء ، لعلك ، من طريق التخيل تلاحق جولانا صدمته قسوة الواقع .... تلك نشوة مشت فى الخط تنبئك أن أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمة لذوقه).

ان الفن الاسلامى رؤيته رؤية بالاشواق وهو يمتاز بالتنوع والوحدة معاً . يقول م.س. ديماند فى كتابه «الفنون الاسلامية».

(يمتاز الفن الاسلامى بتنوع عظيم أصاب نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله ، وهذا التنوع بلغ من الشدة حدا يصعب فيه كثيرا أن نجد فيه تحفتين متماثلتين ومع ذلك يمتاز بوحدته) (*)

والواحد هو الأصل فى العدد . . وفى الكون . . والتنوع هو الظاهرة الكبرى فى الطبيعة ... والفن الاسلامى لم يعط الصورة انسانا أو شجرا أو نهرا « كينونة » لأنه اعتبرها ظلالا عابرة فى طريق تطلعه الدائم الى ما وراء الطبيعة . الى الله الواحد . وان كان الفنانون المسلمون قد أخذوا عن الصين رسوم الطير يسبح فى الهواء فيكسب الصورة حياة وحركة كما يقول الدكتور زكى حسن فى كتابه (الصين وفنون الاسلام) وحين نمثل الفن الاسلامى هذا المعنى خرج خلاصة مقطرة للحيوية والحياة . . .

وهنا يتعانق الدين مع الحياة فى ود موصول حين نفهم عنه فى استشفاف واع معانى كلماته الجامعة . فنتجاوز بالتوحيد النطق الببغاوى بالشهادتين الى توحيد الذات فلا انفصام ولا تشقق ، وتوحيد المجتمع فيبرأ من الشيع والتطاحن ، وتوحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله .

الدين قيمة كبرى ... والفن الأصيل موضوعه : القيمة ... بينما العلم الحديث يفسر القيمة لا يتغياها ... القيمة عند العلم الحديث خارج الموضوع ... وهى عند الفن قبلة يتجه اليها كما يتجه عباد الشمس نحو النور ...

العلم الحديث آلته الذهن وله حدود الذهن وهو بهذه المحدودية لا يمكن أن يحيط بالحياة أو الدين أو الفن . ولعل قوته فى معرفة محدوديته .... بينما الفن أقرب الى التصوف فيه « الحال » عطاء الله ، و « المقام » درجة يصل اليها السعيد بالمجاهدة ...

والقلب بين الحال والمقام يترقى بالصفاء من مقام الى مقام حتى يصل الى الملأ الاعلى ...

ان مشكلة مصر اليوم انها ينقصها « الأســاتذة » الحقيقيون فى كل مجال من هذه المجالات ... ولهــذا نقص الوعى من ضــبابية الادراك ... ادراك معنى « العلــم » و « التكنولوجيــا » .... و « الفن » و « الدين » و الانسان » . ولعلنا بادراك (نقص الادراك) نكون قد اقتربنا من الهدف . فان ٩٠٪ من الحسن فى ادراك المشكل ...

ليس اعتباطا أن تنبــع الأديان من الشرق وتنشــأ فيــه لأن « التوحيد » فيها يوافق حب « التكامل » الماثل فى طبيعة الشرق. لمــاذا لم تتفوق الملحمة والقصة عندنا كما هو الحال فى الغرب؟ على الرغم من اننا نحب الحكايات ؟ ذلك لأن طبيعة تفكيرنا التكامل لا التصارع الذى هو أساس الدراما ... الملحمة مجلى بطــولات يبرزها الصراع الثنائى ولكن مصر حتى حين تتصارع تفىء سريعا الى الوحدة .فحروب الجنوب والشمال انتهت بوحدة الوادى ولبس « مينا » تاج الوجهين .

وصراع أوزوريس وسيت انتهى الى تحكيم القضاء ونصب ميزان العدل .وهذا الادراك العميق للامور هو فى صميمه بطولة فكرية . »

وحين جاء الاسلام حدث فى القرن الســابع الهجرى أن كثرت الفرق والنحل واشتد الخلاف بينها .فأتفق رأى العلماء على العالم المصرى الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ..

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد ؟ فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفى مصرى بلدى السبكى هو الشعرانى. وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول . وقــد

حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا) .

ان ملحمة مصر تتمثل فى الرائعات الفنية : « الهرم » .. « أبو الهول » .. « الكرنك » « جامع السلطان حسن » .. «تائية ابن القارض» . أما «الالياذة و «الأوديسة» ففى اليونان لأن عندهم « الصراع » حتى بين آلهة الأولمبياد ... حتى القدر يقابل الانسان ... فالانسان والقدر يتصارعان ...

أما الاسلام فانه بآيته (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) ١٦٢ ك الانعام ٦

الاسلام بآيته هذه فيه اتجاه الى الله وتسليم سلامى ... الله الذى هو قمة القيمة ...

ولا نحاج هنا بالمنتصر الذى قتل أباه المتوكل ، ومأساة (المستعين بالله) و « ابن المعتز » .. فهؤلاء تحت جلودهم جاهلية ... جاهليتهم الأولى التى كانت تكمن وراء الخلافة وأبهتها ...

انهم دون مستوى الاسلام ...

والاسلام المسالم المصفى طرحه محمد فى عصره.ولكنه بما هو دين الفطرة السليمة موجود قبل محمد فالأنبياء قبله مسلمون (فان حاجوك أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ٤٤ النمل ٢٧ .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) ٤٤ م المائدة .

وابراهيم (قال له ربه اسلم قال أسلمت لرب العالمين) . الاسلام دين الفطرة السليمة . دين العقل الحر والانسانية الكاملة ...فحى

ابن يقظان اهتدى الى الاسلام بلا نصوص أو هكـذا يـرى ابن طفيل ...

الدين الحقيقى أكبر كثيرا من (الحرفية): حرفيـة النصـوص والطقوس التى نهوى الوقوف عند ظاهرها دون أن نكلف أنفسنا مشقة الغوص فيها واستقرائها ...

ان أعدى أعدائنا اليوم هو السطحية ... اننا نطالب باحترام المسرح ونتأذى من وجود اللب داخله ، وثقافتنا قشور وحـديثنا قزقزة ... فلم نعد نكلف أنفسنا النفاذ الى الأعماق التى انشغلنا عنها بالثرثرة والاستطراد يشيع فى كلامنـا بل وفى تخطيط مدننـا خاصة فى العصر الوسيط . فأنت لا تكاد تأخذ فى السير حتى ينعطف بك الشارع الى ممرات جانبية وأزقة تفضى بعد حين الى الطريق الرئيسى ثم يتفرع مرة أخرى وهكذا ... ويتمثل هـذا فى طراز العمارة الخاصة بالمسـاكن التى يضـمنها أصحابهـا دهـاليز و (مسروقة) الخ .

ان الانجليز يسمون ظاهرة الاستطراد عندنا :

The Story of the Merchant

فاننا لانكاد نشرع ، فى رأيهم ، فى حكاية التاجر حتى نسـتطرد الى موضوعات وموضوعات ثم نعود الى حكاية التاجر من جديد . وهكذا فلا الحكاية تنتهى ولا استطرادنا يكف ...

نحن نتكلم كثيرا لأننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا نريد أن نقول كما يقول أمرسون

He did not know what to say, so he cursed.

ما أحوجنا الى القصد فى القول والعمق فى التفكير والانفتـاح فى الايمان لنحب فى صدق : الـدين والفن والحب ... فنتعاطف ونتواد فلا يعد بأسنا بيننا شديدا يحسبنا الناس جميعا وقلوبنـا شتى ... ويوم تتحقق وحدتنا يتحقق بهـا ومعهـا المعنى الكبير للدين والفن ، ومفهوم مصر لهما .

حين تحرر المصرى من الخوف أبدع الحضـــارة

اذا أردنا كتابة التاريخ لكى نعيد بناء الشخصية المصرية علينــا أن نراجع مفاهيمنا للمبادىء التى تقوم عليها الأوطان وفى مقــدمة هذه المبادىء ((**التحرر من الخوف**)) أن J. A. Wilson يعزو ازدهار الحضـــارة المصرية الى **تحرر المصرى القديم من الخوف وايمانه العميق بوجود رب يحميه** مما أكسبه ثقة فى نفسه تجرت فيه قوى الابداع والخلق . يقول ويلسون (قد تكــون الحضـــارة المصرية حصيلة الموقـــع الجغرافى والأرض الســمراء الخصــبة المستدفئة بشمس أفريقيــا . ولكن الســبب الاكبر وراء هــذه الحضارة ، عقيدة المصرى القديم بأن مصر يحكمهــا اله هو ابن اله الشمس الذى يمنح مصر الخلود فمم يخاف)

انه اذن الايمان والطمأنينة والثقة .

وهنا مفتاح من مفاتيح الشخصية المصرية يجب أن نبحث عنــه فيما ضاع .

لا يمــكن أن نعيــد بنـــاء الشــخصية المصريــة الا اذا

خلقتنا أولا من أنفسنا مجتمعا ناضجامتحضرا يرعى الحق والجمال والخير ... مجتمعا كل شيء فيه محسوب فلا نغرق فى المدح اذا رضينا أو رهبنا ولا نسرف فى الذم اذا عادينا أو غضبنا...مجتمعا لايداجي ولا يصانع بل يؤمن فيه كل فرد حاكما أو محكوما بأهمية كل فرد ، وحرية الرأى ، والعمل ، والتسامح ، واتخاذ سبيل الاقناع بدلا من القوة ، والحكمة ... تلك الصفات التى يعدها وايتهيد Alfred North White head من مستلزمات الحضارة .

ومن المبادىء الرئيسية ((**الوطنية**)) وهى كلمة جامعة تتضاءل عندنا على كثير من الشفاه حتى تغدو هتافا أجوف بلا مضمون .. وفى رأيى أن الهتاف وطنية البسطاء .. ومصر لا تحب الهتاف لانها شبعت منه .. والصادقون فى حبها يعملون فى صمت ويشكلون حبهم انجازات ، تضيف اليها ... وحضارة مصر اضافة الذين أحبوها فترجموا حبهم الى عمل دائب ..

فمصر اسم شرف لا يكتسب بالولادة ولكن بالعمل... بالسلوك .. بادراك القيمه .

ومصر فى الضمير العالمى قيمة نفيسة بما هى مجموعة قيم حضارية ومنجزات حضارية .

الوطنية اذن عمل .. ورع وطنى .. تصوف وطنى .. وبهذا تغدو الوطنية ، قيمة .. قيمة انسانية .

وطنية أن نأخذ ما عند الغيرونضيف اليه من ذاتنا لا أن نبهر بكل ما يأتى به الغرب .. اننا لو تأملنا قليلا نجد الغرب عبارة عن تكتيك + فوضى فى القيمة ... والأوربى يحاول تبرير الموقف المعاش حتى يستطيع أن ينام .... أنه يهدم القيم فى أنحاء العالم بدعوى أن التقدم انما هو التقدم العلمى المادى ... وغير هذا مفهوم العلم فى مصر ... لقد اشتق اسم العلم من اسمها ، ((كيما))

فالكيمياء هى العلم الذى يحول الخسيس الى النفيس حتى ليرى (يونج) فيها ، اشارة ... فتحويل العناصر رمز الى تحويل النفس ، ولأمر ما سمى الغزالى كتابه (كيمياء السعادة) .

ومن هنا ، أتخذ أحد المصريين المحدثين الكيمياء فلسفة وطنيته فاهتم بها درسا وعملا ، تعبيرا عن مصرية واصالة ...

وهكذا مصر .. العلماء والفنانون يخدمونها .. (والهتافون) يدوشونها ويزعجونها .

ان المادة مرآة الروح اذا عرف الانسان كيف يستشف المعنى من وراء المادة .. فنحن لا نهون من التقدم المادى الذى يزهو به الغرب . فالمادة فى ذاتها ليست رذيلة والشخص السيء ليس المادى ، ولكنه القاصر عن تحرير المادة وكثافتها ، والخروج بها الى شفافية المعنى . وهذا هو ما يفتقده الغرب ...

وطنية أن نعرف عيوبنا فمعرفة النقص خطوة كبيرة نحو الكمال ولكن بلا مبالغة . فمصر بلد الأساسيات جغرافيا وحضاريا وفنيا. ولكن البعض يغفل عن المنبع المتدفق بالخير لينظر الى البالوعة التى تتجمع فيها الشوائب .

وطنية أن نعيش العصر ونفهم ما جاء به من نظريات فى العلم والفن ولكن دون انبهار يفقدنا أنفسنا .. ان الكثير مما يستهوينا قد يكون فى تراثنا ما يعادله أو مايفوقه لو أننا نعرف ما عندنا

ان التكعيبية والسريالية القائمة على التجريد وتجاوز الشكل بل تجاوز المنطق والتطويح الى ما وراء العقل ، يتفوق عليها الفن المصرى القائم على نقاء الشكل مع الاحتفاظ باللمحات الانسانية.. حقا كثيرا ما يتجاوز الفن المصرى الشكل ولكن الى الاسطورة بشاعريتها وغناها .

ان الصعلوك ليس فقط المشرد الضائع وانما **الصعلوك هو المبتور من جذوره الثقافية** . يقول كاتب انجليزى (العرف بديل العبقرية) .

ان من يتعرى من الغطاء الاجتماعى المنسوج من قيم أمته وحكمتها وتجاربها ، انسان هش يتيم معنويا وان حسب نفسه متحررا حرا ...

أنا لا أطالب بالمثالية ولكن **بالمثال** .. أن تنمو من الجذور ثم تتفرع كما نشاء .

ولأمر ما يعبر أولاد البلد عن طحن انسان أو سحقه بقولهم .. **« يعدمه العافية »** . ان التربية الحقيقية ... غرس التاريخ فى النشء تعطى العافية .. القوة .. الأمل .. الحلم ... الارهاصات اى همس الوجدان .

ان أزمة الانسان المعاصر ان وجدانه لا يضاهى تقدمه التكنولوجى فملك الآلة ولم يملك السلوك وحسن الاستعمال . انسان العصر الحاضر سباق مدنيا.. فقراء هذا العصر يستضيئون بالكهرباء وهو ما لم يتيسر ليوليوس قيصر ولكنه معنويا ، معدم لا يعرف كيف يعيش ، كيف يحب .. كيف يكره ليس عنده (فن الحياة) اللهم الا اذا كان عبقريا .

انسان العصر محروم من الرعاية المعنوية ثقافته متجولة كبضاعة الباعة المتجولين .. ثقافة جرائد وأفلام مسطحة .

ولأمر ما تغير وزارة الثقافة عندنا اسمها بين حين وآخر فهى تارة وزارة الاعلام وطورا وزارة الارشاد وحينا وزارة الثقافة لاننا نحتفل بالأسماء لا بالمضمون ... لقد عمل الانسان اللغة فلا يدع اللغة تشكله ... لو كان لوزارة الثقافة هدف محدد لما

غيرت أسمها مرات .. لو تعمقت مضمون كلمـة (مصر) وهو حضارة + مسيحية + اسلام + حرية ... وهـذه الحرية ، أى الخط الرابع ، تستقطب هذا كله ...

لو عرفت وزارة الثقافة هذا المضمون لاتخـذت منه شـعارا وجعلته محورا لها وهدفا ....

ان الحرية انتفاء للآلية ونفى للاضطرار يتحقق هذا المعنى فى الانسان بل الجماد فالخط المستقيم نقطة متحركة فى اتجاه واحـد ففيه معنى الآلية أما الخط المتموج فهو أكثر حرية ولكن الجمـال فيه رتيب فيه بعض آلية داخل حريته .. وتزيد الحرية باختـلاف الموجه بين ارتفاع وانخفاض .

لقد كان فى الفن الفرعونى خطوط مستقيمة ولكن الى جانبهـا خطوط أخرى تتحرك فى حرية تامة وهى بانطلاقها تؤكـد ضرورة الخطوط المستقيمة ليتوازن البناء الفنى كالأعمدة فى البناء الهندسى . حتى (العقـد) المغرم به الفنـان المصرى حتى ليوفره لصـوره ونقوشه كلها ... هذا العقد المستدير رد على دائرة الرأس يدور معه الفكر ليصعد الى الرأس من جديد .

كان عند الفنان المصرى تفتح وانفتاح وانشراح وتمهل فى التقبل فاذا رسم أحس احساسا طبيعيا موهوبا بالنسب فيخرج الأثر الفنى **وكأنه منظوم فى بحـور رياضية** فهو كشاعر موهوب يجيـد النظم ولو لم يكن يعرف العروض .

وحين نسأل السؤال التقليدى هل الانسان مسـير أم مخير فان معنى مسير ضد الحرية .. **انمـا الحر هو المخير** . مثل هـذا الانسان اذا فعل فقد اختـار .... ان التصـميم هو الوضـع باختيار ...

الحرية نمو على مستوى الفرد والمجموع .. ان عز الانسـان

الأول اعتمد على ذاكرته وقد بدأ مرحلة التحضر عندما بدأ يحرر رجليه الأماميتين أى يديه ... ولما تفرغت اليدان وبدأت تعملان فى حرية بدأ المخ ينمو ...**والثقافة نمو النفس المتحررة من الخوف والعقد** بحيث يكون لديها من الادراكات والمنجزات والطرح ما يمكن أن يتاح للنفس الانسانية الراقية .

ومن الحرية بل من الوطنيـــة أن نحب الحرية لغيرنا ... ان وطنية المستعمرين (أنانية قومية) ... لهم الغنى والديمقراطية والحرية..وللشعوب المغلوبة الفقر والاستعباد والذل...ولا يستحون بعد هذا أن يتشدقوا بحقوق الفرد وحرية الرأى واحترام انسانية الانسان — وهم يعنون الانســـان الأبيض بالطبـــع — أما احترام انسانية الشعوب فموضوع آخر .

قتل امرىء فى غابة * جريمـــة لا تغتفر
وقتل شـــعب آمن * مسألة فيها نظر

وطنية أن نحترم أوطان الآخرين كما نحترم وطننا ... لقـــد دعا جمال الدين الأفغانى الى الحرية فى غير وطنه ، وثار تومبين على الاستعباد فى كل مكان حتى لقد ألب الأمريكيين على الاستعمار البريطانى ، وهو الانجليزى مولدا وهوية لانه كما يقول هلد جارد هوثورن :

(الدنيا وطنه والحرية رايته) .

وما دمنا نحب الحرية للآخرين ونحترم أوطانهم فلا يستكثر علينا أحد ولا ينكر علينا أحد أن نعلى راية (المصرية) دون أن يتعارض هذا مع القومية العربية . فالعرب فى سائر بـــلادهم ينتمون أولا الى الوطن الأم ثم ينتسبون الى العروبة بحكم الدين واللغة ومسار التاريخ فى الأربعة عشر قرنا الأخيرة .

ونحن فى مصر لا نطلب أكثر من هذا لا سيما **واننا نحمل اسما عرفته الدنيا قبل الديانات واللغات والقوميات فنحن مصريون أولا ونحن مسيحيون ونحن مسلمون ونحن عربيو اللسان والهدف والمصير ..**

ان الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه الكبير عن (القومية العربية) يسميها « **رابطة** » ونحن لا ننكر هذه الرابطة ، ولا نستطيع .. وليس فى مصلحتنا ان استطعنا ولكن « **الرابطة** » مهما عزت ، لا تبلغ الأصل المرتبط والمربوط بل ان وجودها رهن بوجوده .

انها لمأساة ان تحتاج الحقائق الثابتة الى اثبات .

من هنا ندعو الى اعادة قراءة التاريخ حفاظا على الاصل ، واتخاذه منطلقا للتجديد والخلق حتى تكون لنا **شخصية متميزة** ثم نتمسك بها .

لقد أخذت اليابان بأسباب العلم الحديث بل أضافت الى علوم العصر ، ولكنها تمسكت بأسلوبها فى الحياة ونظامها فى العيش .

انى أرى الهنود فى مصر ورايتهم فى بلاد اخرى عربية واوربية فلم تخطئهم العين بزيهم الخاص مهما تطوحت الموضة حولهم وفى عقر دارها .

ان الانسان يولد فى العصر الحجرى ، والتربية هى التى تصل به الى العصر الحديث .. فى ادراك القيمة لا فى ارتداء الموضة فان من يرتدى الموضة فحسب لا يزيد على شماعة خشبية انما المقصود رحلة فى النفس .. معاناة حقيقية ..

الشخصية قمة الوجود الانسانى ... **تكامل الكيان البشرى نحو قيمة جديدة** وهى بالنسبة للأمم **خلق حضارى** كالذى فعلته مصر والهند والصين فى العالم القديم .

وهى بهذا **ولادة ثانية** والقيمة ثراء للذات واثراء .

فرق بين (الشخصية) Personality وبين الفردية

ووزارة الداخلية حين تعمل للمجرم (فيش وتشبيه) **وتسمى** هذا تحقيق شخصية ليس فى الحقيقة الا تحقيق فردية Individuality

الوطنية وعى بالماضى ومحافظة عليه باتخاذه منطلقا نحو التجديد ... ان القبة هى الترجمة الاسلامية للهرم .

القبة هرم ترفق المصرى المسلم فى بنائه فاستدار الخط بعد صلابة وثبات ...

وكالقبة ، المئذنة ... ان داخل كل مئذنة ، مسلة فى الشكل والروح ... المئذنة قدمها على الارض وقلبها معلق بالمحل الارفع كما يقول الغزالى فى الواصلين انها Sermon in Stone

والفنان المصرى الاسلامى كان يجمع الى قوته الموروثة سماحة الدين الجديد ورحمته فانطبع هذا فى فنه حنيات واستدارة فأبواب المساجد يزركش المصرى المسلم أعلاها وكأنه **يحنن** المستطيل ويعشق الخشب ويستنطق السطح بالنقش والنمنمة ...

كم هى بليغة لغة ابن البلد فى لفظة (يعشق) . الخشب فى مفهومه أرواح تتحاب وتتعانق وتعشق ... ان لغة ابن البلد فى هذه (الحتة) أبلغ من التعبير الانجليزى Made with love على جماله ورقته ...

حتى المفاهيم العقائدية تلتقى فيها عصور مصر مع تجديدها .. فلو تأملنا الآثار المصرية لرأينا (الجناح) يسيطر على خيال المصرى الذى رمز به الى الرحمة .. الى الانطلاق .. الى السيطرة .

ولهذا شاع فى الفن المصرى القديم (القرص المجنح) حبـــا فى النور والحرية ، وتحصيننا بالشمس والجناح ...

والقرص المجنح يقابل فى الاسلام (بسم الله الرحمن الرحيم) نفس الـــ Sentiment وتسرب هذا عبر الاجيال الى نفس ابن البلد فأصبح يقول ويؤمن (بمصر المحروسة) .

وهكذا نرى الحفاظ غير الجمود .. لقد أدرك المصريون برؤية داخلية بصيرة ان الحضارة تحتاج الى زمن .. اســـتمرار ... حفاظ .. ان الحضارة لا تبنى فى جيـــل ... هنـــا اخترعـــوا الكتابة .. العمارة .. التحنيط حفاظا على الجسم من الزوال... وقد لاحظ شبنجلر فى كتابه Decline of the West

ان الهندوكى يحرق الجثة والمصرى يحافظ عليها ويحنطها .

وفى لغتنا اليومية لفظ « قيد » بمعنى اكتب واحصر حتى لا يهرب المعنى .

والفكر المصرى من طبعه الحفاظ فهو يحافظ على قديمه ولو كان Out of Modern لقد ظلوا يقولون ملك الوجهـــين حتى بعد أن توحدت مصر وصارت كلا واحدا ... وفى المعبد مقاصـــير الشمال تقابلها فى الجانب الآخر ، مقاصير الجنوب انها الوحـــدة المصرية يعبر عنها الحجر بالشعر الموزون .

ومع هـــذا كله ، **مصر قادرة على التطـــور والتكيف** فاعتنقت المسيحية ثم الاسلام وكانت فى هذا تصدر عن طبيعتها لا سيما وان المسيحية والاسلام فيهما منهـــا الكثير حتى ليصف جاك مارتان ، الفن الفرعونى بأنه مسيحى النزعة والامل Christian in hope كما أجمع أساتذة الفنون ، شرقيين وغربيين ، الذين رأوا جامع السلطان حسن على انه فن فرعونى ولو انه أثر اسلامى .

اعتنقت مصر المسيحية والاسلام بما فيهما منها . ان مصر حين رمزت الى الخير والعدل والحق بـ (معات) كانت بطريقتها تقول من خلال (معات) : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) .

لقد اعتبرت المسيحية مصر (الارض المقدسة) لوجود آباء الصحراء فيها ... وعندما جاء الاسلام شربته مصر ونمت به ، ونمته فلم يمح شخصيتها بل **أضاف اليها عمقا جديدا** وأضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليته فى **السلم والحرب** فدافعت عنه فى مواقعه الكبرى ، وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون فوق ما عملته له على أرضها برصيدها الكبير فى صناعة الحضارة مما لا يستوعبه كتاب محدود .

ان مصر قادرة على التكيف والتطور .. لقد أحبت مصر القديمة الحياة حتى أنكرت الموت ولكن مصر المسيحية حين وجب الفداء أحبت الموت حتى أنكرت الحياة واستشهد فى سبيل المسيحية أبرار ستبقى شهادتهم رمزا للايمان .

فمصر قادرة على التكيف والتطور حتى لتبلغ به اقصى المدى الذى يبدو للظاهر متناقضا وهى فى الحالين تنبع عن أصل واحد هو طبيعتها السمحة القابلة للتطور . انه **التوازن** بين الثبات والحركة ، الذى يقول عنه جوستاف ليون فى حديثه عن « الحضارات الأولى » ، (ان قليلا من الشعوب من نجح فى تحقيقه بل نادرا .. وأندر منه من احتفظ به ..)

وتختلف الأديان والعصور والمصرى يجمع فى كيانه هؤلاء كلهم ..

ان دنيا المصرى كمملكة الثبات عالم رائع له عقل كلى كما يقول اخوان الصفاء .

مصر خلقت نفسها كاله الشمس الذى خلق نفسه فى الاسطورة المعروفة ...

وجودها شاهد على القيمة وانجازها دليل عليها ... والقيمة الأولى فى تاريخها ، الفن .. الفن المصرى القديم فهو انجاز حضارى رائد .

أما القيمة الثانية فى تاريخ الشخصية المصرية فهى الفن الاسلامى .

ان الشخصية المصرية = حضارة + ارتفاع فوق الأحداث كارتفاع المآذن فوق الطوابق + وعى بالمقدس بوجود الله ....

مصر القديمة خلقت نفسها حضاريا

ومصر الاسلامية نمت نفسها

هناك خلق وهنا تحقيق نمو .

وميزة حضارة مصر ، **الاستمرار** وفى **تكامل** .

ان الحفاظ الحقيقى تنمية وتكامل .

مصر الاسلامية كانت القلب الرائع والنابض للطائر الذى يمتد جناحاه من جنوب الصين الى جنوب أسبانيا ..

ان رؤية مصر ، تختلف باختلاف الأفراد . فمن همه الطعام والشراب **يرى مصر** ، **الوادي** .. ومن يبحث عن : **المعنى فى مصر** يخرج الى **الصحراء** .. أما **مصر « الطموح »** فهى ما بعد الصحراء حين تفرد جناحيها ويمتد نشاطها فيصل الى الشام شمالا ، والسودان جنوبا ، وليبيا غربا ، والبحر الأحمر شرقا ..

مصر هذه لعبت بالحجر والذهب .. صاغت الحجر وثقفته بالنقش واللون ، وشكلت الذهب وجملته بالنمنة والفن .

كم وشوشت مصر الحجر واترعته أسرارا ومشاعر فكان عملها لون من التطعيم الذى نحسبه قاصرا على الصدف

ان القاهرة احظى عواصم العالم معماريا باهراماتها ومعابدها وكنائسها ومساجدها وفنونها التشكيلية .. وهى من الناحية الحضارية أروع العواصم .

لقد عرف (جوته) العمارة بأنها موسيقى فى الحجر ... ان عاصمتنا — من هذه الناحية — لحن رائع .

... ...

هذه هى شخصية مصر التى دخلت بها التاريخ ووضعت بصمتها عليه شخصيتها التى هى وجود متميز معدود ومحسوب وله قيم وثقافة بعينها ...

شخصية مصر كالعمود فى العمارة الاسلامية فاستقامة العمود يترجم عن الخط الصابر الصامد ثم يلين فى انحناءة يستجمع بها نفسه ويستمد العزم فى طريقه الى قمه .

ولا يرمز الى شخصية مصر كالنيل والمقطم انها حوار بين الصخر والماء من يلاينها تعذب وترق كماء النيل ومن يتحداها تصلب كالصخر ... صخر المقطم . هكذا خلقت ... انها لقاء خلاق وحوار آلاق بين الصخر والماء ... حوار يدور فى النور .

ولا ينال من شخص مصر او شخصيتها اخذها بمنطق الأحداث ... لقد تكلمت مصر العربية لأن الاسلام كان ينطلق فى المنطقة من « كلية » معينة ... كان (وحدة) تريد أن تأخذ دورها فى المنطقة .. وفى .. التاريخ .. ومصر قلب هذه المنطقة بلا ادعاء او تواضع ... قلب المنطقة فى العصور القديمة ، وفى المسيحية ... وما كان للقلب أن يغير مكانه فى الاسلام ... لقد اخذت مصر دورا منذ عهد عثمان ... ومن لا يغيب عن المسرح لا بد أن يتكلم لغة الرواية التى تدور على خشبته .

لقد تمسكت فارس بلغتها بعد الاسلام وما ذلك الا لانها بموقعها بعيدة عن الأحداث وعن العيون الا أن تكون مصدر فتنة أومؤامرة.

وهـذه (الكلية) فى الحضـارات نادى بهـا أخيرا فى العصر الحديث « سمطس » ... **فمصر حين تكلمت العربية لم يحـدث فيها (انقطاعية) فى حضـارتها** كما يقول الأستاذ الدكتور جمـال حمدان فى كتابه العظيم (شخصية مصر) مؤيـدا رأى توينبى فى المصريين المحدثين ومغايرتهم للقدماء .

ان لغة الحروف ليست كل الصلة بالمـاضى .

هناك لغة التشكيل التى امتدت عبر العصور موحدة الاسلوب والنبض والأداء فى المعبد والكنيسة والمسجد ... فى النقش والحفر والنسيج والنجارة . بل عادات ونظام الحياة .

أليس هذا كله امتدادا واستمرارا ؟

هذه هى مصر وليست كما يقول رينان فيما رواه عنه الدكتور حسين فوزى،فى حديث له عن أحياء البحر الأحمر والبحر الابيض، ومضمونه ان مصر حينما يتعين عليها أن تلعب دورا يتصل بالنفع الانسانى العام تكون الضحية الدائمة ... حيـادها لنفع غيرها والروح الوطنى مقضى عليه فيها وسوف تحكم مصر بمجموعة دول متحضرة وبالاستغلال العلمى المنظم للعالم سوف توجه الانظـار الطموح الى وداى النيل !!

لا رد لنا على رينان فالعالم مملوء بعقول رينانية . كان الغزالى يقول : ان القلم على روعته ، أروع منه اليد التى تمسك به ... وأروع منه الشخص المحرك الذى يملى عليه ... وانطـلاقا من هذا المنطق الحكيم للامام ، نقـول ان أروع ما شـيدته مصر :

« **الشـــخصية المصرية** » . التى استوعبت النصر والهزيمـــة .. والازدهار والانحلال والصلابة والتســـيب ، والعزة والقهر ... **عرفت** مصر هذا كله ... **واستقطبت** مصر هذا كله **وتحدت** مصر هـــذا كله ... **وتخطت** مصر هـــذا كله .. **ولم تكف عن البنـــاء والتشييد والعمل ...**

العمل لا فى داخل حـــدودها فحســـب **بل خارجها** اذا كانت شخصيتها فى كل العصور تفرض عليها الامتداد فى اتجاهين :

* اتجاه رأسى أى الى أفريقيا والجنوب .

* اتجاه أفقى أى الى آسيا شرقا وليبيا غربا .

ومن هنا يجب أن تكون دعايتنا فى الوقت نفسـه دعوة لا قضية ... ان من يكتف باعلان انه مظلوم ، متسول انصاف لكن قيمتنا فى استيعاب قيمتنا الحضارية .. فى فهم دورنا المعطاء .. وكنـــه العطاء الجديد الذى سيضيفه .

واستيعاب المـــاضى تحضير للعب الدور الجديد فى عملية صعود الى المسرح ثانية .... استيعاب المـــاضى **بوصلة قومية** ترشـــد بها الخطى وتعصمها من الضلال ...

* * *

كان قدماؤنا يحرصون على **تجليد** المعبـــد أى اقامة سور من الطين حوله حتى لا ترهق رهبته النفس أو تذهب الألفة ، بهـــذه الرهبة . ويبدو ان سور الطين نقلناه نحن حول قلوبنا فلم نعـــد نرى فى الهرم والمعبد الا مكانا للنزهة لا للمعنى .

لقد ولدت مصر معبدا فلا تحولوها الى ملهى ... حرام ؟؟؟

وقفة عند الدولة العصرية

فى محاولة كتابة التاريخ من جديد نقف وقفة عند الدولة العصرية التى نتنادى بها ... وهذا النداء يتضمن الاتجاه الى الغرب باعتباره السابق ونحن نريد اللحاق به ... ومن الطبيعى الاخذ بأحسن ما عند الآخرين . ولكن يجب أن نقف وقفة خاصة عند هذا الموضوع . **فان الشباب يعيش فى وهم كبير اسمه أوربا ،** حتى اذا أتيح لهم أن يذهبوا اليها ، وأن يعيشوا فيها ، شهورا وأعواما ، انسلخ البعض عن قومه، ومزق الصراع البعض الآخر. ذلك الصراع الذى صوره الأديب يحى حقى فى قصته (قنديل أم هاشم) .

وغير الشباب لا تزال المجتمعات الشرقية من رواسب الاستعمار عندها (عقدة الخواجة) يقابلها عند رجال الدين المحافظة الشديدة التى تصل عند البعض الى حد التزمت .

وفى صراع الدعوات والشعارات والآراء يعلو صوت الواقعية المادية والعلمية . ولست أرى من وراء هذا الحديث التهوين من قيمة الصناعة أو العلم الذى غزا الفضاء وترك بصمته على القمر .. أبدا ولكننى أريد وسط هذه التيارات الزاخرة ، أن

نتفاعل مع الحياة والحضارة الحديثة فى تماسك يحفظ علينا شخصيتنا المصرية العربية الشرقية حتى لا يجرفها التيار فتضيع... ونكون كذلك الغراب الذى تحكى القصة على سبيل الرمز أو الحقيقة ، انه استهواه مشية العصفور وقفزاته الرشيقة ، فأراد أن يقلده بدون تفكير ، فانتهى أمره الى مشية مضحكة ذهبت مثلا ...

كما أن المحافظة التى أعنيها لا تتعارض مع رغبتنا المخلصة فى أن ننمى شخصيتنا ، وأن نطورها ، وأن ننفض عنها غبار القرون والاحداث ...

لقد ظل الادب الانجليزى فترة طويلة من الزمن ، وعلى الاخص فى عصر (بوب) و(دريدن) متأثرا بالادب الفرنسى ، وكان سوينبرن Swinbarne شديد التأثر بالشعر الفرنسى كما كان كارليل Carlyle متأثرا بأدب ألمانيا .

ولكن تأثر هؤلاء بآداب غيرهم لم يفقد أدبهم قوميته وذاتيته ، بل زادته ثراء وعمقا .

وكان جوته شاعر ألمانيا العظيم يجيد اللغة الفرنسية الى حد الاتقان — هذا الى اتقانه اليونانية واللاتينية — حتى قيل انه تردد يوما هل يكتب بالالمانية أو الفرنسية ، ثم أخذ يدرس الادب العربى والفارسى . وفى السبعين من عمره طرح ثمرة عظيمة هى كتابه الفريد الذى سماه (ديوان الشرق والغرب) . وترجم القرآن الكريم ، بل لبس العمامة وارتدى القفطان ، وفى أوربا ، تشبها بحافظ الشيرازى الذى كان يحبه ويعجب به . ومع هذا ظل جوته شاعرا ألمانيا صميما يستلهم الشرق والغرب فى آن .. الصور شرقية والاحساس غربى .. توغل كما يقول أحد الذين ترجموا له ، فى هذا العالم الشرقى دون أن

يفقد شخصيته . فهو يتبع القافلة وهى تسعى على مهل فى الصحراء ، ويسمع صوت البلبل ونغماته الحزينة ، حول الغدران والينابيع ، ويصغى لهذا بانتباه ، بل قرأ ترجمة المعلقات فى الانجليزيةثم حاول هو ترجمتها من تأثره بها وحاول فيما حاول من معطيات الشرق ، الكتابة العربية ليتغنى بالقلم العربى المسنون من القصب فى مقطوعته (القلم) .

كان جوته خير رد وابلغه على رد يارد كسيلنج الذى قال (الشرق شرق والغرب غرب وهيهات يلتقيان) .

لقد التقى الشرق والغرب بقيمهما فى جوته ... فى فكره وفى سلوكه فى ديوانه الذى يقول فيه :

من حماقة الانسان فى دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه
واذا الاسلام كان معناه التسليم لله
فاننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين .

فاذا أضيف هذا كله الى أدبه وثقافته الغربية ، نشأ من ذلك ازدواج موفق غاية التوفيق ، وكان بمثابة عهد جديد فى الادب الالمانى ، فان الشعراء المعاصرين من الالمان لم يلبثوا ان أخذوا يقتفون أثره ، وانصرفوا عن أناشيد الحرب والقتال ، لينشدوا أغاريد الشرق ، وكان أشدهم تأثرا بجوته ، أو (بديوان الشرق والغرب) الشاعران : ركر وبلاتين .

ومتى ظهر (ديوان الشرق والغرب) ؟ لقد كان هذا ما بين ١٨١٤ — ١٨١٩ فى وقت كانت ألمانيا تتسعر فيه حماسة ووطنية كرد فعل لغزو نابليون لها .

هذه ألمانيا .. أما ايطاليا فان بعض الباحثين الغربيين يلمح

أثر العقيدة الاسلامية فى البعث والآخــرة ، فى قصــيدة دانتى : الكوميديا الالهية .

إلتقى الشرق والغرب فى الحضارة الحديثة التى يعزوها «وايتهد» الى : اليونان وفلسطين ومصر . من اليونان فلسفة، ومن فلسطين المسيحية ، ومن مصر العلم والصناعة. أوقبل أوربا تجمع هذا كله فى مدرسة الاسكندرية التى انتقل اليها مركز الثقافة من أثينا ، فمزجته بتراث مصر الدينى والعلمى والصناعى حتى غدت « الهلينية » أى فلسفة اليونان ، « هلنستية » ، بعد أن احتوتها الاسكندرية ، وأضافت اليها ، لتؤثر بعد هذا فى الفلســفة الاســلامية ثم فى الحضارة الاوربية .

كما استفاد العرب فى مطلع نهضــتهم من ايران ومصر والهنــد وما وراء الهنــد واليونان . والواقع كما تقول الدكتــورة سيجريد هــونكة فى كتابهــا (شــمس الله تشرق على الغرب) ، ــز ان التعصب الدينى وعدم التسامح كانا دائما من أعدى أعــداء الشعوب فالعزلة عدو الحيــاة والنمو والتطور . ثم ان تبــادل الثقافة بين الشرق والغرب الى جانب الاحترام المتبادل الى التعاون والتصافى أدى جميع هذا الى تفتق العبقريات . واذا تغاضينا عن بعض حالات التشاحن والبغضاء التى وقعت بين العرب والاوربيين أحيانا ، فان تعاون الشرق والغرب سيكون خيرا وبركة للعــالم اجمع)

انى لا أميل الى تقسيم الأمــم الذى ذهب اليــه من الغرب « ليون جوتييه » فى كتابه (تمهيد لدراسة الفلسفة الاسلامية) و « دنكان ماكدونالد » فى كتابه (تطور الفقــه ونظــرية الحكم عند المسلمين) ... ومن الشرق ، « الشهرستانى » .

ان الطبيعة البشرية واحدة فى عمومها على الاقل ... واذا كان الشرق بحكم حضاراته القديمة ، يتعامل مع القدم والقيم بطبعــه

وطبيعته ، فان الغرب بعقليته التى تهوى التحليل والتعليل يتعامل مع المحسوسات ليصل عن طريق المقدمات الى النتائج ...

الشرق كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود ، فنان .

والغرب عالم .

والعلم كما نعرف وسيلى .. والفن غايى قيمى ..

وحين أقول هذا ، لا أنفى أن العلم قيمه بما يهذب من نفس الانسان الى حد تجريدها الى أفق الموضوعية .

وهو غايى بما يحرر الانسان من الجهل .

العلم يهذب ويجرد .. والفن يصفى ويقطر وجود الانسان لإستخلاص القيمة .

كان عالم الطبيعة « ادنجتون » يقول : المتصوف والفنان لا يقل موضوعية فى تعريف الحقيقة عن العالم الطبيعى .. كما كان « اينشتين » يقول : رؤية النبى والفيلسوف والعالم ، للحقيقة واحدة من زوايا مختلفة .

وهكذا لا تعنى المحافظة التى نحرص عليها أن الغرب شر كله، فنحن أصدقاء الانسان فى كل مكان . ولكن الانسان المعطاء الذى يعلى الخير والحق والجمال ... فبتهوفن بموسيقاه أنبل وأكرم ، وأسمى ، وأطهر ، وأشرف من تجار الحروب باسم الحرية تارة ، وباسم مناهضة الشيوعية تارة ، أخرى ... تلك الخدعة التى كشفها شبابهم نفسه فثار ، عليها فى أوربا وأمريكا ثورة عارمة أعلن عنها فى ملبسه وسلوكه وأسلوب حياته . وألف من بينه الجماعات المختلفة التى تمثل صرخته واحتجاجه ، كجماعات الهيبز وجماعة (الكريشنا) التى تؤمن بالفلسفات الشرقية القديمة بعامة والهندية بخاصة ، وتدعو الى العودة الى روحانية

الشرق بعد أن أعمت الغرب أطماعــه وأفقــده حب السيطرة بشريته ، وأورثته مجتمعاته تعاسة مرة على الرغــم من الازرار التى يضغط عليها كلما أراد شيئا فيتحقق بسرعة ، كأن كل زر منها خاتم سليمان الذى يعيش أمنية فى خيال الظماء والمحرومين فى أساطيرنا القديمة .

هذه الازرار التى جعلت الانسان الاوربى فى مجتمعه كأنه ترس فى آلة ضخمة يدور معها معطل التفكير ، مسلوب الشعور ، ففقد فى النهاية متعته وحيويته وسعادته ، اذ فقد الاحساس بقيمتــه وغنائه عندما حلت الآلة محله فى كل شيء ، وحرمته متعة الخلق الكامل .

وحين وجد الشباب الاوربى والامريكى اليوم نفسه ضــائعا فى مجتمعه يسير معه فى طريق مسدود ، وقع فريســة للمخــدرات والعقاقير هروبا من واقع مرير وحياة عقيمــة ، الى حــالة من الاستغراق والاحلام آملا أن تعوضــه عن الايمــان الروحى الذى افتقده فى ظل الشيوعية والرأسمالية على السواء .

وقد عقد كتاب (عصفور من الشرق) مقــارنات طــويلة بين الشرق والغرب فى أكثر من ناحيــة .. وفى أكثر من اتجــاه من اتجاهات التفكير والسلوك لا بأس من تأملها فى هذا الوقت بالذات خاصة الشباب فالكتاب عصارة سنوات فى أوربا حين ذهب اليها مؤلفه شابا للدراسة فحديثه هنا ليس انطباع اللحظة العابرة أو الملاحظة السائرة ولكنه حصيلة الدراسة والوعى المتأمل والمقارنة الحساسة .

والاستاذ توفيق الحكيم يستهل كتابه بحديثه مع صديقه الفرنسى (أندريه) عن الفرق بين الشرقى والغربى فى النظر الى المعبد .

ان الغربى يدخل الكنيسة كما يقول أندريه كمــا يدخل القهوة

« هنـــاك محل عام وهنا محـــل عام ... هنـــاك الأرغن وهنـــا (الأوركسترا) » ص ١٥

أما الشرقى فانه يعد نفسه لدخول المعبدكنيسـة أو مسـجدا. نهما فى عينه « السـماء » وليس من السـهل كمـا يقـول « محسن » ــ الذى هو الكاتب نفسه ــ الصعود فى كل لحظة.. انه لمجهود ...

شرق وغرب فى الحب الذى يعلنه الغرب فى أى مكان وأمـام اى عين حين يغالى به الشرق ويأبى (أن تعرض العواطف هـذا العرض ، فى الشوارع والطرقات فتبتذل ، وهى التى ينبغى لهـا أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى الأصداف) ص ٤٨ ـــ ٤٩.

الحب فى الغـرب عملى ككـل شىء ولكنـه فى نظر محسـن (احساسات عليا) وخفقة قلب ، ولهفة روح ، وتطلع عين ،وظمأ شوق ، وتمن ورجاء ... ويأس ولقاء أو لا لقاء ... أمل كالنجم يبدو حينا قريبا وهو جد بعيد ... هذا العذاب يراه (محسن) أحلى وأشهى ما فى الحياة .

فرق بين الشرق الذى يؤمن بالأديان وروحانيتهـا وبين الغرب الذى يؤمن بالعلم والمـال وحدهما ...

ان ايمان الشرق العميق بالدين يمثله شهداء المسيحية وأصحاب بدر ... وحين تسلم الغرب من الشرق الاديان (البسـها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رؤوسها التيجان المرصعة بالمـاس ، وأقبضها صولجانات الجـاه والجبروت الأرضى ! ان الكنيسـة فى أوربا كانت ـــ فى يوم ما ـــ أعظم مؤسسـة مالية ، وان نظامهـا الرأسمالى لادق نظام ، وأن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المـالية ، وتقوضها اذا شاءت فى طرفـة عين ، فأين ذهبت كلمة المسيح ؟) ص ١٦٥ .

ان أوربا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم علمــاءها حرقــا ، واتهمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت حرية الرأى حتى فى شـــئون الأدب والفن ، وجعلت من المسيحية التى تبشر بالمحبة والسلام ، سلاحا للفتك أمام محاكم التفتيش .

عرفت حضارات الشرق (العلم) و (العلم التطبيقى) فالحضارة التى تشيد الأهرام لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية ، ومع ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصـــور التى تمثل الحياة الأخرى ...

ان حضـــارات الشرق التى عملت للدنيــا والآخرة حضـــارات « كاملة » . أما الحضارة الأوربية بكل غرورها فقد قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم ولكنهـــا أخرت البشرية وسلبتهـــا طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها ... اننا بالقطـــارات والطيارات كسبنا السرعة ولكننـــا خسرنا ثروة النفس التى تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ...

❋ ❋ ❋

والكتاب يعنى أن انسان الغرب عنده نزعة تحطيمية وهى عدم الايمان بقيمة أى قيمة ...

ان حضارة الغرب تدرس الاشياء لا الانسان ولهذا لم يكتشف الانسان الى اليوم ...

ان مجرد وجود علم النفس دليل على أزمة الانسان المعـــاصر المتشقق نفسيا .

تسود الغرب روح نهلستك اى روح عدمية .

وأوربا وأمريكا فى الحديث تقابلان التعبير التـــاريخى القـــديم جريكو رومان .. أوربا تقابل الشق الاول : جـــريكو ، وأمريكا

تقابل « رومان » . فالامريكان رومان العصر الحديث قوة وعضلات وغشامة .... الامريكى أمامه طريق طويل لكى يتحضر .. انه يملك المـال والنفوذ ولكنه لا يملك التراث أو الحضارة .. حتى المسيحية التى جاءته من عندنا كانت أكبر منه فلم يهضمهـا ولم يعرف قيمها العليا من محبة وسلام ....

نحن فى الشرق ومصر عندنا قدرة على التكامل تعـادل قـدرة الانسان الغربى على التجريد وهو عاجز عن التكامل ... عاجز عن الرضا .. الطمأنينة ... السعادة الداخلية ...

الغربى عنده علم ووسائل .

ولكن ليس عنده غايات .

ولذلك يجدر بنا عندما نتكلم عن (روح العصر) أن ندرك أن روح العصر هذه لها بعدان فى الزمان والمكان فروح العصر فى الغرب عدمية تحطيمية ولكن روح العصر فى الشرق شىء آخر .. تفاؤل وايمان واحساس بالتاريخ وبالقيمة ...

انسان الغرب فى حاجة الى روح وهو ما أراد يونج أن يقوله فى كتابه : Modern man in search for a soul

والكاتب فى (عصفور من الشرق) ينقد النظام الصناعى الذى أوجد النظام الرأسمالى وينقد أسلوب التفتيت فى الصناعة الذى ذهب بمتعة الخلق الكامل وأورث العاملين ملالة التكرار واستشهد بنقد أبناء الحضارة الاوربية أنفسهم لها مثـل الكاتب الانجليزى (الدوس هكسلى) الذى يصف حضارة أوربا بأبهاكم لا كيف ....

كما نقد الكاتب (الشيوعية) على لسان صديقه الروسى الذى يقطـع بأن جنـة الفقراء لن تكون على هـذه الارض .. وأن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الارض ... لقد عرفت أديان

الشرق النفس الانسانية ففتحت لها أبواب السماء التي بشر بهـا أنبياء الشرق .. جزاء للصابرين ومن حسنت أعمالهم .

ولكن « الغرب » أراد هو أيضا أن يكون له أنبياؤه ، الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد ، وكان هذا الضوء منبعثا هذه المرة من باطن الارض ، لا آتيا من أعالي السماء ... هو ضوء العلم الحديث ... فجاء « كارل ماركس » ومعه انجيله الارضي « رأس المـال » وأراد أن يحقق العدل على هذه الارض فقسم « الارض » وحدها بين الناس ونسي (السماء) فماذا حـدث ؟ حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض ، ووقعت المجـزرة بين الطبقات تهافتا على هذه الارض .

وكأنه ألقى تفاحة بين أطفال يتلمظون !

وكأنه هذا الكارل ماركس ألقى قنبلة المـادية والبغضاء واللهفة والعجلة بين الناس ...

أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة (الصبر والامل) في النفوس .

ان روح (المسيحية) كما نبعت في الشرق : هي المحبة والمثل الاعلى ... وروح (الاسلام) الايمان والنظام .. ومسيحية اليوم في الغرب هي : (المـاركسية) .. أما اسلام العصر الحديث في الغرب فهو (النازية) .

تلك هي الديانات التي استطاع الغرب أن يخرجها للناس يوم اراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانا .

في كتاب (عصفور من الشرق) روح اشتراكية خيرة في غير عنف ، عادلة في غير تعسف أو تخريب . فهو يحلم بالسلام والحب والرخاء للجميع وينفر من رق رأس المـال وتحكمه ...

(ان الغرب يستكشف الارض ، والشرق يستكشف السماء ...
اننا نمجد ذلك الذى أسكن الانسانية (قارة جديدة) لكننا لا نرى مجد ذلك الذى أصعد الانسانية واسكن الانسانية « السماء) .

ولا يعنى هـذا تفضيل الكاتب الشرق على عـلاته فقـد أحاط بضعفه حين استسلم للاستعمار كمـا أنه لم يتردد فى الاشـادة بالغرب كلما وجد موضعا ...

فالمسرح فى الغرب ليس كذلك الذى وصفه عندنا المويلحي فى حديث عيسى بن هشام ، ولكنه مسرح يخيـم عليه سكون قدسى كسكون المعابد .

وموسـيقى بيتهوفن ان هى الا (وحى السـماء يتكلم بمختلف المشاعر العظيمة التى رفعت الانسانية الى هذه المرتبة) . ويؤمن على كلمة « نيتشة » فيه (كل العواطف البشرية الساميـة فى السيمفونية الخامسة) .

***

وهنالك عصفور من الغرب يجب أن يقرأه الشـباب ليستردوا ثقتهـم بأمتهـم . أعنى كتاب (شـمس الله تشرق على الغرب) للدكتورة سيجريد هونكه وهو كتاب عالمى لو لم يكن علمى المنهج والتفكير والأسـلوب لمـا استقبلته اللغـات والشعوب هـذا الاستقبال .

ما هى دلالة المظاهرات الصاخبة التى تقوم فى أشد بلاد أوربا تقدما ورقيا ، ان هذه الظاهرة تعنى افتقاد هذه البلاد للروح...
لا أعنى أن هذه العبارة تنسحب على كل من فيها ... ان الانصاف يقتضينا أن نقـول أن طغيان المـادة فى أوربا لم يطمس كل شىء فيها كما ان الايمان فى الشرق باعتباره مهبـط الاديان السماوية كلهـا لا يسرى فى كل قلب ولا يلمس كل نفس حتى وان أدت

الفرائض فى ميكانيكية آلية فكم من صائم بيننا ليس له من صيامه الا الجوع والعطش، وكم من قائم ليس له من صلاته الا القيام والقعود .

ان الدين حسن الخلق وأن الاعمال بالنيات وأن أنفع الناس انفعهم للناس وأن العمل عبادة وأن التفكير فريضة اسلامية لانها فريضة انسانية وأن الانسان أكرم المخلوقات وان احترام العقل الانسانى واجب دينى فهل ندرك هذه المفاهيم ونقدرها حق قدرها ؟ هل نطبقها فى حياتنا على المستوى الفردى والمستوى العام ؟

اننا نبسمل كثيرا ونحوقل ونشيع العبارات الدينية فى حديثنا حتى ليخيل الى من يرانا أن أطرافنا تقطر تقوى ولكننا فى بلاد القبلتين والمسجدين والانبياء والرسالات نجد أن الاعم الاكثر من المستشفيات والملاجىء والمدارس من عمل الحكومات لا الافراد الخيرين .. ان أعظم عمل يقوم به الفرد الغنى منا فى نظر نفسه اذا هزته اريحية أن يبنى مسجدا والمساجد كثيرة والاسلام لم يحصر العبادة بين جدران اربعة .

ولو فتشت فى التاريخ لوجدت أن عصر بناء المساجد الكثيرة هو اشد عصور التاريخ الاسلامى ظلما وعسفا واستبدادا فأكثر مخلفات المماليك فى مصر كانت المساجد ، والمماليك هم من هم ، كما نعرف ، فى الجور والنهب ، والسلب ، واستباحة الأنفس والأموال فبناؤهم المساجد ما هو الا تغطية أو تكفير عن الذنب .

فنحن فى سبيل الاحتفاظ بالنظرة الموضوعية وتوازن الشخصية الفكرية يجب الا نعمم الآراء بغير استثناء والا نطلقها اطلاقا مسطحا يحجب الاعماق ويحجب معها حقائق كثيرة .

نحن نشكو اليوم من أمية العقل ونغفل عن أمية أخرى لا تقل عنها خطرا وهي أمية الشعور .. حين تعمر أوقافنـا بالأمس القريب والبعيد بلفتات انسانية مضيئة فهناك وقف على الخـدم الذين يكسرون بدون عمد آنية مخدومهم وهناك وقف على الحيوان لانه أعجم لا يبين وكثير غير هذا مما ينم على رهافة الشعـور وشفافية النفس .

أقول هذا حتى لا نستنيم الى القول بأن الشرق روح والغرب مادة ففى ذلك الغرب أمثال اللورد نافيلـد الذى أنفق الملايين حقيقة لا مجازا على اقامة المستشفيات والملاجىء ووجـوه البر الايجابية .

وفى الغرب المـادى أمثال العالم الفرنسى جان روستان الذى أثبت فى أبحاثه وجود عالم الروح وأعلن عن وجود قوة خفيـة تسير الكون .

وفى الغرب المـادى متصوفة مثل سويدنبرج يلتقون بالحـلاج ورابعة العدوية .. وفى الغرب المـادى زهاد كأبى العتاهية يصلح شعرهم الروحى غذاء للنفوس كالشاعر الانجليزى وليم بليك .

وفى الغرب المـادى أسر كبيرة وكثيرة تحافظ على أداء الفرائض الدينية محافظة دقيقة بل فى الغرب أسر تنذر أحد أبنائها لله فتجد قسسا ورهبانا ينحدرون من أباء ذوى مراكز مدنية مرموقة .

وأسر أخرى محافظة لا تسمح بالاختلاط المفتوح على مصراعيه ولا تبيح الجلسة أو الرؤية الا فى نطاق الاسرة أو وجـود أحـد المحارم . وقصة اقتران لويس باستور بزوجته خير شـاهد على هـذا .

ان ستيفان زفيج فى مذكراته يعزو رقى العلم فى فرنسـا الى

الزوجة الفرنسية فهى بما تبذله من ذات نفسها لتوفير الراحة لزوجها انما تمنحه السلام النفسى الذى يعينه على الانتاج والعطاء.

ولكننا ننسى هذا كله أو نتناساه ولا نتكر للمجتمع الغربى الا الخلاعة المحصورة هناك فى مناطق معينة والا نظام التسرى الذى مكن له هناك استحالة الطلاق حين نغفل اخطاءنا وأحيانا عن عمد بدعوى الوطنية مع أن المرء مرآة اخيه .

أليست النظافة فى ديننا مقرونة بالايمان بل هى منه حتى ليخيل الى من يقرأ النصوص والتعاليم أن الدين سداه ولحمته النظافة والحياء فهل نحن حريصون على مظاهر النظافة حتى فى انفسنا ؟ هل من الحياء فضولنا غير النافع الذى يدس أنفه فى ثقب كل باب وينفق من وقته فى جمع الاخبار الصغيرة ما لو أنفقه فى تحصيل علم أو جنى معرفة لاثرى شخصياتنا فتغير الكثير من اساليبها فى الحياة وتعدل تبعا لهذا التغيير الكثير من مفاهيم مجتمعاتنا وأختفى الكثير من أمراضنا الاجتماعية وتقدمنا خطوات نحو حياة افضل ؟

ان تقديس العمل واجب ، كما أن تقدير العاملين واجب أيضا فهل نحن وذوو المرتبات منا خاصة يلتزمون الامانة الواجبة فى تأدية أعمالهم ؟ وهل عندنا نظام الحوافز الذى يكافىء الجهود المخلصة ويستحث الجهود التى على الطريق ؟

ان الذين رأوا منا الغرب على الطبيعة وتعمقوا الاشياء والدلالات عرفوا كيف يميزون الحدود الفاصلة بين الخير فيه والشر وعرفوا كيف يأخذون أحسن ما عنده ويضيفونه الى أحسن ما عند الشرق لينصلح أمره ويبصر طريقه فى غير تثبيط أو تضليل من دعاوى استعلاء أو غرور .

ومن هنا قامت نهضة الشرق على أكتاف رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده ثم على أكتاف تلاميذهم من بعدهم .

بل أن الشيخ محمد عبده كان يقول بعد أن عايش الغرب حين كان يحرر (العروة الوثقى) فى باريس :

(أن أهل أوربا هم مسلمو هذا العصر .. أما نحن فكفرته) .

قد نكون معذورين فى نظرتنا الى الغرب بمنظار أسود فان الاستخراب ولا أقول الاستعمار قد لوث فكرتنا عنه وأورثنا البغض الشديد لكل ما هو غربى — وان كان بعضنا يقف فى الطرف الآخر متحمسا لكل ما هو غربى كرد فعل ، أو لون من الجمع بين الشىء ونقيضه ، أو لاعتبارات شتى من نوعية الثقافة أو النشأة. قد نكون معذورين ولكننا فى مقام تقويم أنفسنا وتمييز ذاتيتنا يجب أن نحرر ارادتنا وعقلتنا من أسر النظريات الشائعة والاقوال السائدة ونعيد النظر فى كل شىء فى **موضوعية وتجريد علمى نزيه.**

أن ابن البلد عندنا فلسفته أن يتعامل مع الوجود بغير بحث مكتوب .. اسلوب حياة ... وهو يكره التعقيد والتقليد ويجمع هذا قوله لمحدثه اذا تقعر أو تشدق : بلاش فلسفة وهو يعنى بلاش بغبغة ...

ان داخل كل انسان مبدأ للحياة ، قد يولد انسان ويموت دون أن يكتشفه ، ولكن هذا لا يعنى أنه غير موجود ... وواجبنا أن نعين النشء على الانبعاث السلوكى على مستوى الافراد ، ونعين الأمة على الانبعاث السلوكى على مستوى الجماعة ...

ومن هنا يتحدد موقفنا من حضارة الغرب ... بمعنى اننا نستطيع أن نستعين بعلوم الغرب وفلسفاته وبالوسائل الحضارية **دون أن نفقد ذاتيتنا** . فرجلهم (يونج) يقول (لايمكن للانسان أن يصير غنيا بالاستجداء) ...

ان التعارض بين الشرق والغرب ، فات وقته كما يقول الاستاذ مزيت غالى (لان تعارضا أخطر قد برز فى مقدمة المشاكل العالمية ،

هو الناتج عن مسافة الخلف بين البلاد الشمالية المتقدمة والثرية؛ والبلاد الجنوبية المتخلفة والفقيرة ، وما التعارض بين شرقنا وغربنا فى حوض المتوسط سوى جزء من ذلك التعـارض العـالمى بين الشمال والجنوب ، الذى يتوقف على حله مستقبل الجنس البشرى وانى أوافق تماما على أن ثنائية الشرق والغرب قد فات وقتهـا ، ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين) .

* * *

نريد أن ننظر الى الحياة نظرة مستقبلية لا تجذبهـا الى الخلف والتخلف سلاسل الاوهام .. وذلك من أجل مصلحتنـا نحن قبل الآخرين ...

لنسأل أنفسنا : كيف نعيش ؟

ليس من يعيش كمن يحيا

كيف نعيش ؟ نحن فى طريقنا الى تصحيح وضعنا السياسى من دول الاستعمار ، وتثبيت وجودنا الحضـــارى بين دول المـــدنية الحديثة فى حاجة الى تصحيح كثير من الاوضـــاع الاخرى واعادة تقييم كثير من المفاهيم والعادات والتصرفات فى حياتنا ..

نحن لا نحيا حياتنا كما يحيا الناس .. ان كثيرين منا لا يعرفون معالم بلادنا كأنها خلقت للسياح وحدهم ... وذلك أن الفرد العادى يتبع عقله عينـــه فهو لا يفكر الى أبعـــد مما تنظره تلك العين ... انه يؤدى عمله المـــاثل أمامه فى رتابة مملة لا تجديد فيها ولا ابتكـــار ولا فن فاذا فرغ منه عاد الى بيته مكدودا من الخمول لا من التعب ، او انحط على كرسى فى مقهى يحتسى الشاى ويلعب الورق...ولو انتشرت فى مدننا الحدائق العامة والنوادى الخاصة والمســـابقات الرياضية والفنية ، والندوات الادبية واللقاءات العـــلمية لتغيرت نظرتنا الى أوقات الفراغ وتغير أسلوبنا فى العمل أيضـــا .. ان الأصـــحاء فى البدن والعقل يجدون ويلعبون ويضحكون ويتمتعون بأطايب الحياة التى أحلها الله .

ان الرياضة لعب .. وركوب الخيل لعب ، والسباحة لعب ،

وان الضحك يجدد شباب القلب ويلون الحياة بلون وردى فينشط الانسان بعده للعمل .. والعمل الجاد اذ وجدت عنده الطاقة له والقدرة عليه ..

ان السفر والرحلات متعة وثقافة معا .. كم من الاسر عندنا يعيشون حياتهم على هذا النمط .. بل كم من الاسر يخرج افرادها معا ويتساوون فى الحقوق والواجبات ، ويتعاونون داخل بيتهم الواحد !

كم بيتا من بيوتنا فيه مكتبة للقراءة وفيه آلة موسيقية يعزف عليها هاو من أفراد الأسرة ؟

لقد رأيت أيام الآحاد فى البلاد الاوربية أياما مقدسة فيها الصلاة فى الكنائس وفيها الصلاة فى محراب الطبيعة .. مهرجانات ورحلات بالزوارق فى البحيرات وقطارات تغدو وتروح بهواة الصعود الى قمم الجبال .. والمطاعم ليس فيها مكان خال لان الكل يريد تغييرا شاملا .. يريد أن يقضى يوم الاحد كاملا فى الخارج ينتقل من متعة الى متعة .

كيف نقضى نحن يوم الجمعة ؟

اننا لاينقصنا الصناعات بأنواعها من خفيفة وثقيلة بل ينقصنا وفى المقام الاول أن نعرف كيف نعيش .

واذا لم يكن فى استطاعتنا أن نطيل أعمارنا أكثر مما قدر لها ففى مقدورنا أن نجعلها أغنى ، وأعمق ، وأجمل ، وأهنأ ، وابقى أى نعيشها بالعرض ... أن نملأ كل دقيقة من حياتنا بالبهجة ،

الضحك من القلب بهجة ، وادخال السرور على الناس بهجة ، والعطاءماديا وفنيابهجة ، والخلقبهجة، وتذوق الجمال والفن بهجة، ومنح الحب بهجة ، واقالة العثرة بهجة ، والقراءة بهجة ، والرحلة

فى الارض بهجــة وكــذلك الرحلة فى النفس والرحلة فى الزمن ، والرحلة فى المــاضى .

الانتصار للحق بهجة ، واقرار العدل بهجــة ولو انهــا غالية الثمن ...

كم من مباهج تزخر بها الحياة ولا يراها بعض الناس .

ولكن هذه المباهج غذاء للروح فماذا عن الجسم؟ ما هو أسلوبنا فى الطعام ؟

لقد قلت ان المطبخ المصرى آفة من آفات الشــخصية المصرية فماذا نأكل وكيف نأكل ؟

وليس المقصــود بالاكل ملء البطون بالطعــام والشراب فذلك لا فن فيه ولا خير منه .. ولكنى أقصد بالاكل نوعيته لاحجمه ... الكيف لا الكم .

ان المقصود بالطعام أن يكون غذاء أى يحتوى على عدد معين من السعرات الحرارية ويحتوى على نسب معينة من النشــويات والسكريات والدهنيات بحيث تمد الجسم بالطــاقة المطلوبة له . فهل يخطر ببالنا هذا كله ونحن نعد طعامنا ثم نتناوله ؟ أم اننــا ننشد أولا حسن المذاق ؟ ولذة الطعام ؟ هل نأكل مثلا فى مواعيد ثابتة لا تتداخل ولا تختلط ؟ هل نتبع نظاما معينا ؟ هل تلقن صغارنا آداب المــائدة وأسلوب المؤاكلة وكيفية استعمال الأدوات المختلفة؟

لقد جنى علينا فى سائر البلاد العربية تقريبا المطبــخ التركى بدسمه ولذائذه التى تحمل فى ثناياها كثيرا من أمراض المعــدة والكبد ونحن نعلم جيدا قول النبى صلى الله عليه وسلم (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) وقال فيما يتصل بقواعد الطعام (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لانشــبع) وهى قاعــدة

صحيحة لا تخيب .. ومن العجيب ان علماء التغــذية لم يزيدوا عليها شيئا بعد بحوث طويلة حصيلتها فى النهاية عدم انزال طعام على طعام وعدم الامتلاء ..

ان امراضنا كلها لو حللتها ترجع الى : افراط التغذية أو ضعف التغذية أو سوء التغذية وما يتصل بهذا كله من عـــادات سيئة تتفشى فينا .

لقد رأيت فى سويسرا عددا كبيرا من المسنين الذين يتجـــاوزون السبعين وهم منتصبو القامة . منتظمو المشية ، نشيطو الحركة.. لا يزالون متفتحين للحياة ولهم فيها مشاركة ايجابية . بل اننا فى احدى الرحلات الليلية على البحيرة اخترنا نحن أن نأخذ مكانــنــا داخل الباخرة حين كان رجال ونساء فى سن آبائنـــا بل أجـــدادنا يجلسون على السطح فى الهواء الطلق كمـــا يقـــولون ... ومن الطريف أن هذا الهواء الطلق كنا نسميه نحن بردا قارســـا .

ان هذه الصحة سرها كله فى نظام طعامهم الصحى الذى يعتمد على الخضروات الطازجة والفواكه والمسلوق ....

ترى هل نأخذ عبرة ؟ مع أننا نعيش فى جو حار ، وأرضـــنا تجود فيها الخضر والفاكهة على مدار السنة ؟

***

هذا عن أنفسنا . ونعود الى السؤال مرة أخرى متصلا بأولادنا . كيف نعيش فى أطفالنا ؟ أى ماذا نعطى لأطفالنـــا ؟

هناك يعطون للطفل الكتاب المصور ، والصور الملونة ، واللعبه الموجهة التى يجد متعته كلها فى فكها واعادة تركيبها ... يعطونه الطعام الصحى لا الدسم ... يعطونه الحنان الرشيد لا الضـــار الذى يفسد شخصيته ويجعلها اتكالية وشديدة الحساسية من فرط ما ألف من التدليل والاستجابة العمياء التى هيهات أن يعثر عليهـــا فى الحياة العامة عندما يصبح رجلا أو امرأة ..

هناك يعطون الطفل البرامج الجميلة والافلام الخاصة ويعطونه العلم مدروسا ومشوقا .. هنـاك القـواميس الملونة الخاصـة بالاطفال ودوائر المعارف الخاصة بالاطفال ودوائر المعارف للزهور والنباتات .. كل شيء هناك مدروس من أجل الطفولة ...

أمامي منهج المحفوظات الانجليزية الموضوعة لاطفـال السـنة الثالثة بالمرحلة الابتدائية ... وجدت فيها مثلا هذه القطعـة عن (عبور الطريق) وترجمتها :

قف وأنظر واسمع
قبل أن تعبر الطريق
استعمل عينيك وأذنيك
ثم استعمل قدمك .
انظر يسارا ويمينا
عندما يكون الضوء أحمر قف
عندما يكون الضوء أصفر استعد
عندما يكون الضوء أخضر سر آمنا
وقطعة أخرى تقول تحت عنوان : (بذرة البرتقال)
لا ترم أبدا بذرة البرتقالة
على الأرض أرجوك
ان قطعة منها تحت كعب
قد تكسر قدما

بدون تعقيد .

هكذا يعلمونهم الحياة والسلوك بدون خطابية ... وفى سهولة وفى كتاب آخر خاص باللغة رأيت فيـه كيف يعلمون الكلمـات الانجليزية بالشعر الخفيف مثل : ضع حرف كذا مع كذا فيصبح عندك قطا .

وضع حرف كذا مع كذا فيصبح عندك كرة .

ومع هذه المسميات صورها ملونة وفى أوضـــاع مضـــحكة تسر الطفل وتسليه .

هكذا يعلمون لغتهم حين نبدأ نحن تعليم لغتنا لاطفالنا بالنحـــو ونلقنهم فى جدية صارمة ان الكلمة تنقسم الى اسم وفعل وحرف فاذا وصلنا الى (الجملة) فلا نجد فى لغتنا التى نطنطن بغنـــاها ووفرة مفرداتها الا هذه الجملة التى لا تتغير كأنها تحفة :

(ضرب زيد عمرا) !!

وهى سيئة لفظا ومدلولا واثرا فى نفوس طفلة سهلة الالتقـــاط والانطباع .

ثم نلوم أولادنا ، كبارا ، على تصرفاتهم ثم على نفـــورهم من دروس اللغة العربية !!

لخص الاستاذ سامح الخالدى عيوب التعليم فى مؤتمر الدراسات العربية سنة ١٩٥١ فاذا بهذه العيوب لا تزال ملموسة اليوم اى بعد ربع قرن تقريبا . ومما قاله عن مدارسنا فى البلاد العربية بعامة أن (التدريس فيها ميكانيكى يعتمد على ذاكرة الطالب فى الدرجة الاولى . والاعتماد على الحفظ هذا من ميراث عصـــور الانحطاط خاصة . كما أن الفرد فيها مهمل ، فشخصية الطلاب مضـــغوط عليها ، ولهذا تؤلف وحدات مكبوتة ، وقد شل فيها ابتكار الطالب وتفكيره الحر الطليق وخياله . والروح الرياضية الحقة معدومـــة فيها ، فالالعاب تلعب للغلبة ، وما زال الفرد فيها هو المهم ، وما زال الجمهور يصفق للفرد اللاعب فيها لا للمجموع . كما أن التربية الدينية الحقة الممثلة فى المثل العليا لا وجود لها . فالدين بمفهومه الحقيقى لا يؤثر تأثيرا فعالا فى حياة الطلاب من الناحية

الخلقية . والتدريس الدينى سطحى ، والروح الدينية التى تدعو الى مكارم الاخلاق ، والى انصاف الناس والتنزه عن الصغائر مفقودة . وكتب الدين سقيمة لا تفى بالمراد ، ولا تنمى هذه الانظمة الشعور الوطنى ، أى شعور التمسك بالوطن والاستعداد للتضحية من أجله ... الخ) .

واضيف أن من عيوبنا التركيز على الكلمة وحدها واهمال الصورة ... والصورة المقصودة الـ Image بعد ربع قرن تقريبا أى الصورة المحسوبة ثقافيا .

يجب أن نتجه الى التعليم الموضوعى للطفل بالصورة ... بلغة المنظر . فنعرض له بالصورة الطبيعية الملونة ، **الحيوان** (كموضوع) فى جميع العصور والمناطق : فالحيوان هو (الحياة) والله يسمى الدار الآخرة (الحيوان) اشارة الى الحياة الاخرى .

يجب أن ننفض عن أطفالنا تراب العادة والمفاهيم الثابتة .

موضوع **العمارة** فى جميع العصور والمناطق (معبد ، كنيسة ، مسجد ، ملعب ، متحف ، مدرسة ... الخ) .

والعمارة رمز المدنية والمدينة لانها تساوى الاستقرار .

العمارة مسرحية متعددة الشخوص والارواح .

موضوع **الآلة** أى **العلم والصناعة** فى الفن والحياة مثل ظهور السينما — الكاميرا — التليفزيون — الآلة .

التعليم الموضوعى للطفل نقسمه الى ثلاثة أقسام :

١ — **ما قبل الحضارة** — ويمثله عالم الحيوان .
٢ — **اكتشاف الحضارة** — وتمثله العمارة .
٣ — **الحضارة فى خطر** — وتمثله الآلة .

يكفى أن يعرف الطفل بعد عرض الكثير ، أن هذا جزء من الممكن ليصير عنده احساس بالندم عله يخرج منه تولستوى آخر أو غزالى آخر . أن الفن أسلوب فى رؤية الوجود وليس (فورم) .

أما المعلم فيجب أن يكون موجها فالمعلم الملقن يحجب العمل الفنى كما أشرت . وخير وسيلة للتعليم كما يقول تولستوى هى : العمل .

هناك يلجأ ون الى طريقة الحفز فى التكليف بالواجبات كأن يقول المدرس لتلاميذه : كل منكم يعمل فى المساء ساعة فى الحساب فى باب كذا .. ولا يحدد عدد المسائل ، فالذى يحدث عادة أن كل طالب يحل عددا من المسائل أكثر كثيرا مما يملأ ساعة ، اظهارا لقدراته وتسابقا مع زملائه ، وارضاء للمدرس .. يفعل هذا الطالب وهو راض ، بل مزهو ، لانه يشعر أنه يعمل بمحض اختياره وهو فى الحقيقة مدفوع دفعا غير منظور ..

السنا بحاجة فى سائر المجالات الى أسلوب الحوافز بدلا من أسلوب الامر والنهى الذى نهواه جميعا ، ونمارسه بمجرد أن تسنح فرصة ، وليته يجدى فان الذى يقرأ مذكرات النابهين منا ، أو من غيرنا يروعه أن الاوامر والنواهى التى وقفت فى طريق هواياتهم ، سواء فى الاسرة أو فى المدرسة أو حتى فى الحياة العامة، لم تثنهم عن عزمهم بل زادتهم اصرارا ، وأشعلت رغبتهم . فتوفيق الحكيم أراد أبوه أن يكون قانونيا ، لا أديبا فنانا . وتوفيق الحكيم بدوره أراد لابنه اسماعيل أن يكون مهندسا ، فاذا به اليوم عازف جيتار وقائد فرقة موسيقية . والموسيقار القصبجى أراد له أبوه أن يكون عالما فى الازهر لا موسيقيا .. والدكتور طه حسين أراد له أبوه أن يكون عالما فى الازهر ، فاذا به يثور على نظم التعليم فيه فى ذلك الوقت ، ويتجه الى الجامعة المصرية ويتعلق بها طالبا فأستاذا فعميدا ..

لقد وصل هؤلاء حقا الى بغيتهم ، ولكن بعد تبديد طاقات كثيرة فى المقاومة ، ومحاولة الملاءمة والمواءمة بينهـم وبين مجتمعاتهـم الصغيرة والكبيرة ، لو وفرت هذه الطاقات لتسـير فى طريقهـا الاثير عندها ، لبكر عطاؤها وتضاعف .

ولكن تغيير أسلوبنا لا يأتى عفوا ، بل يجب أن يبدأ من البداية أى من البيت والمدرسة ، فان مفاهيمنا فى التربية ، ومفاهيمنا فى التعليم ، آفة من آفات الشخصية المصرية .

ان الطفل هو الانسان الجديد الذى لم يزيفه الكبار . والنظرية التى تقول ان كل انسان يحتوى كيانه فضلا من أى نوع ، نظرية صحيحة تربويا وديمقراطيا .. فلماذا نصر على القـاء التعليمات ونسرف فيها ؟ لمـاذا حين تستبد بنا شهوة تغيير شىء فى الطفل ، لا نسأل أنفسنا كما يقول « يونج » عما اذا كنا نحن فى حاجة الى التغيير لا هو ؟

ان الانسان صغيرا أو كبيرا فى حاجة الى « السيـادة » .. أن يكون سيد نفسه أى قادرا على العطـاء محققـا لذاته ... حتى القرآن والانجيل يجب حين نقرؤهما أن نسمعهما من «الداخل» ،فى عملية تجديد الفكر الدينى كما يقول « اقبال » ، فان توكيد الروح الذى سعت اليه المسيحية يتحقق لا باستبعاد القوى الخارجيـة التى تخترقها أنوار الروح بالفعل ، وانما يتحقـق بتنظيم علاقـة الانسـان بهـذه القـوى الخارجيـة ، على هـدى النـور المنبعث من العالم الموجود فى أعماق نفسه .. بمثل هذا الاسلوب تربى المدرسة ، شخصية الطفل حين تبث فيه وعيا خلاقا للقيمـة والا أخرجت منه فردا مكررا ضائعا فى الزحـام .. وفـرق بين الفردية والشخصية .

الشخصية تولد طفلة ثم تنمو ، غذاؤها العلم والتجربة والحياة .. وهى قابلة للنمو الى غير حد ...

أما أسلوب التلقين المتبع فى مدارسنا فانه يصنع قوالب، لا شخصيات . واذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فان ناقل العلم ليس بعالم .. وانما العالم هو الخلاق المبتكر .

الشخصية هى الذات الساعية الى تحقيق ذاتها بالخلق . الشخصية تكامل لامكانات البشر أى . غريزة + فكر + روح أى بشرية محققة .

يقول الدكتور أحمد زكى فى مؤتمر الدراسات العربية الذى عقد ببيروت سنة ١٩٥١ والذى طبع فى كتاب العرب والحضارة الحديثة .

(ان التعليم عندى مفتاح كل مغلق من مغالق الحياة ، فى شرقنا هذا العربى . ولو أنى خيرت بين أشياء كثيرة يعطاها العرب ، ما اخترت المال ، ولا اخترت الاستقلال ، ولكن اختار التعليم يشمل ويعم ، فهو الوسيلة الى المال ، وهو الوسيلة الى الاستقلال ، وهو الوسيلة الى فتح كل باب مغلق يتدفق منه الخير كثيرا وفيرا ..) .

* * *

ولكن أى تعليم ؟

هل تعلم المدرسة المصرية والعربية ، الطفل حب الطبيعة باعتبارها **الام الكبرى** التى تتطلب منا نحن معشر الابناء أن نبحث وندرس ونتأمل ونتحرك ساعين فى الارض ، متحدين للعوائق فى اعتماد على النفس ؟

الطبيعة أم ومعلم ومرب ...

أم لا تفطم وليدها ، لانه لا وجود له خارج رحابها ، فالشاعر

العربى حين صور الشمول ، لم يجد الا مظهرا من مظاهرها فقال لممدوحه القادر عليه :

فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ليت المدرسة تعلم الطفل أن الطبيعة كتاب الله الصامت ، كما أن القرآن كتاب الله المقروء .

والقراءة فى الحالين أو الكتابين ، تتطلب النور المادى لرؤية الحروف . وتتطلب أكثر النور المعنوى لرؤية ما وراء الحروف .. لرؤية المعانى الحقيقية . والنور المعنوى هو الرغبة والشوق والحماسة ... انها كالزواج قبول وايجاب ... كثيرون يقرأون ولا يستفيدون كأولئك الذين يتزوجون ولا يسعدون ... نحن نزور القبول فى القراءة ، وفى الحياة بشكليات .. تصفح النص من الخارج دون الغوص فيه والامتزاج به ، كسؤال العروس بينما يجب أن تقبل أولا ... أن تختار ... ترضى ثم يأتى عقد القران .... وكم من نساء يتزوجن ويلدن ويعشن فى الحرام على الرغم من عقود الزواج ... وكذلك الكتاب الذى يقرؤه عجلان ، مع أن القراءة الحقيقية تأمل وتودد وصبر يكون كالرافعة الوجدانية تنقل القارىء من حالة عادية الى مرتقى عال .

هل تعلم المدرسة البنت كيف تلبس وكيف تجلس وكيف تتحدث وكيف تتزين وكيف تتصرف ومتى تتكلم ومتى تصمت ؟ هل تعلمها ان الجمال الغالى (تركيبه) صعبة من هذه السمات جميعا ؟

هل تعلمها أن الحب ليس الفارس والحصان الابيض ... الخ تهويمات القصص والاساطير التى يكتبها أصحابها لتزجية الوقت ، أو تسلية الفراغ عند الحالمين والحالمات ؟ وأن الف ليلة وليلة قد يكون فيها الكثير من حياة عصرها ولكن عصرنا لا .

هل تعلم المدرسة ، البنت ، أن مجنـــون ليلى أو قيس ولبنى ، أو جميل بثينة أو كثير عزة ، أو العباس بن الاحنف و « فوز » أو ولادة وابن زيدون قصص شعرية ، شاعرة وأنها مع هذا صحيحة ، وفيها لمسات انسانية الا أن عصرنا له طبيعة أخرى ؟

هل تعلم المدرسة البنت أن عصرها قطع أشواطا بعيدة بعــد (آلام فرتر) و (رفائيل) و (حياة لا مرتين) و (رورميو وجوليت) و (كليوبطرة) ؟

فى سائر اللغات قصص لا تحصى عن الحب .. ومع هذا فالحب لا يصلح للاقتباس كفنون الادب ، أو التقليد كالازياء .

وليست اللغات وحدها فالتاريخ زاخــر بقصص الحب ... لم ينج منه أحد حتى رجال الاديان .. من عف منهم كقس ســلامة ، ومن أسف ، كراسبوتين ...

ومع هذا فالحب ، الحقيقى ، فى سائر الوانه نعمــة وعطـــاء وحنان ... والذى يحنو يمنح ولا يسلب ، ويسمو ولا يقســـو ، ويلين ولا يجفو ، ويتسمح ولا يشتط .

هل تعلم المدرسة أو تسلم بالجنس تطرحه فى موضوعية علمية مصقولة ، بدلا من أن يدور الهمس بين رفاق العمــر وتتخــافت الاصوات ، ويعلو الضحك المكتوم ، وتتقارب الرءوس ، ويطــــل الفضـــول كله من العيون ، وتدمى الشـــفاة من العض عليها من الخجل المصطنع أو الحقيقى ؟ مما يلقى فى الـــروع أن الجنس على اطلاقه عيب وفاضح وفادح ؟

ان العيب هو امتهان الجنس والاباحية .

هل تعلم المدرسة البنت والولد على السواء كيف يختار شريك الحياة ؟ على أساس من التقاء الشعور والفكر معا ؟ فانه لا يطفىء

القلب مثل تفاوت المستوى الفكرى بين زوجين يكون أحدهما فى واد ، والآخر فى واد آخر ... انها الوحدة القاتلة وان رآهما الناس ، وسقف البيت ، اثنين .

لا يكفى أن يعيش الانسان بل لا بد أن يحيا .

وعندما يتحول الزواج مع الشيخوخة الى ألفة قوية ، وصداقة عميقة تكون مواهب الروح خير بديل عن متعة الجسم التى يكون الزمن قد فرغ من التهامها .. ولكن الزمن نفسه لا يستطيع ممارسة هوايته المفتونة بحفر التجاعيد ، مع الروح الخضراء المتجددة النضرة .

ولكن ليس معنى هذا عبادة العقل وحده فهو أحيانا عند بعض الناس يتسيد على حساب جمود العاطفة أو نضوبها ... وهذا الطراز لا تسعد صحبته .. ان رحلة العمر تحتاج الى القلب والعقل معا .. الى الجسم والروح معا ... وافتقاد عنصر من هذه العناصر يسلم الى الشقاء الذى يستعصى على العبادات النفسية .

لابد من هزة عنيفة للمدرسة المصرية ففيهابعد البيت ، يعاد اليوم بناء الشخصية المصرية .

أى يعاد كتابة التاريخ .

وبعد : بعد كل السلبيات التى ذكرت بعضا ولايزال فى النفس حاجات ..

ماذا أقول ؟

ليس عندنا قصد فى القول ، أو تحديد للعبارة . مما يفسد علينا ذكاء الهدف وغايته الكبرى ... والا فهل يعقل أن ننزل (بالعبور) الذى وقفت وراءه وراثات أمة وصبرها وتقديرها وتحضيرها

وقدرتها القديمة فى الادارة ، ثم عذابها بالهزيمة والقهر ولهفتها على الارض والنصر ... هل يعقل أن ننزل (بالعبور) الذى يمثل ويتمثل هذا كله الى ما نسمعه فى وسائل الاعلام من التشدق بالعبور بمناسبة وبغير مناسبة ؟ وما دريت أن البغبغة تقلل من الحدث التاريخى التحولى ، وتهبط به الى مادة دعائية أو اعلان ميلامين. ليس عندنا حلم ثقافى ... أو حلم فنى على الرغم من وجود الجامعات وتعددها .. حتى التراث ، حفظه فى مفهومنا ، معناه تجميعه وتشوينه مع أن الحفاظ عليه يعنى تفهمه وذكره واستلهامه .. ان حياة العلم مذاكرته .. يروى الغزالى أن أحد الصحابة قال يوم مات عمر : اليوم مات ٩ر. العلم . ولم يكتب عمر كتابا ، ولم يكن أستاذا فى جامعة ، ولكن العلم قر فى قلبه ، جوهره .. حين كانت عنده الرؤية الاسلامية الحقيقية .

وبعض التراث، التقاليد. والتقاليد ليست التقليد ولا هى منه.. وليست الجمود كما يفهمها العامة .. والعامة هنا هم فقراء الفكر ولكن التقاليد عند الخاصة ، وهم هنا أثرياء الفكر لا المال ... وثبات الاجيال وعطاؤها .. انها منطلق لكل جيل متطور نام .

اننا اليوم نتكلم كثيرا عن السياحة ونعنى بالطبع السياحة الخارجية بشقيها أو بشطريها أى زيارة الغرباء لنا وزيارتنا للبلاد الاجنبية .. ولكننا نحتاج الى سياحة أخرى قد لا تدر مالا ولكنها تضيف الينا ثراء لا يقدر بمال **أعنى السياحة فى تراثنا فانها مولد جديد لنا ...**

يقول الدكتور فؤاد زكريا من مقال «الى متى نغترب عن حاضرنا» الاهرام ٧٣/١١/٢٨ (فى رأيى أن ماضى الامة لا يمكن أن يكون له تأثير حقيقى فى حاضرها الا اذا كان الخط بينهما متصلا . فقيمة أى اتجاه فكرى ينتمى الى الماضى ، من حيث قدرته على تشكيل الحاضر ، انما تظهر أوضح ماتكون حين يصبح ذلك الاتجاه جزءا

من تاريخ متصل ومن حركة تطور مستمرة تتجاوز نفسها وتصحح أخطاءها خلال مسارها الطويل ، دون أن تتوقف خلال ذلك أو تنقطع ... والتراث الحقيقى فى اعتقادى ، هو ذلك الذى يندمج فى التاريخ التالى ويصبح جزءا منه بحيث يظل الماضى حيا فى الحاضر حتى بعد أن يكون الحاضر قد تخطاه وتجاوزه بمراحل ..)

كتب الدكتور حسين مؤنس قصة رمزية سماها (ادارة عموم الزير) ويبدو أن عندنا ادارات عموم الزير ، ووزارات عموم الزير وكأنها أنشئت لتخلق وظائف لموظفين أو تكون مسرحا أو مفرخا تفرخ فيه القوى العاملة ، الخريجين ، كل عام من باب تغطية البطالة أو البطالة المقنعة ... ولنأخذ مثلا وزارة السياحة لو أن هذه الوزارة تحررت من الروتين وفهمت السياحة على أنها فن وعلم وصناعة لعرفت كيف تستفيد من كنوز هذا البلد أو على الاقل لتعلمت من بلاد لا تملك من فيوض الطبيعة ومسار التاريخ وآثار الاديان الثلاثة ، ما نملك وأصبحت السياحة فيها مورد مورد رزق ومصدر غنى ...

* * *

عندما كتبت عن المازنى كتابا ، صورت البيئة المصرية فى طفولة المازنى حين كان الشعب يئن من قهر الاجنبى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ...

وحين أكتب عن العشرين الاولى من النصف الثانى للقرن العشرين أجدنى فى الموقف نفسه أى ما كتبته هناك ينطبق هنا :

قلت فى كتابى « أدب المازنى » .

(ولما كان نظام الحكم فى مصر فرديا فى كل عصورها قبل أن تضع لها دستورا ، ومثل هذا الوضع لاتستقر فيه الحالة الاقتصادية لانها لاتخضع للتداول الطبيعى وانما تخضع للرغبة التحكمية المحضة ... فاذا كان الحاكم حازما جبادا ضرب على أيدى العابثين واستقر الامر له .. واذا كان ذا نظر عملى بعيد

يدرك شيئا من حال البلاد المحكومة من الناحية الاقتصادية عاد ذلك بالخير على الحياة .. فالحكومة قوامها شخصية الحاكم اذا صلح استقامت الحياة **واذا استبد كان وبالا على المحكومين ..** وهذا يفسر شعور المصريين بان مفاجآت الدهر لا حد لها ، ولاعجب فهم مهددون ليس عندهم من الضمان ما يجعلهم يمضون فى عملهم ليجنوا الثمره أو يجنيها بنوهم . ومثل هذه الحالة تؤدى الى شيء من النهم فى الحياة الاقتصادية والخلقية .. وتغرى بالكسب باى وسيلة مشروعة كانت أم غير مشروعة ما دامت المسألة فلايا فلا توازن بين الفرص وانما الغرض هو الوصول من أقصر الطرق . والنتيجة الحتمية لذلك هى ايجاد فروق غير مهذبة .. ايجاد نظام الطبقات .. ايجاد **طبقة غالبة وطبقة مغلوبة** .والأثر الطبيعى لهذا كله أن تنقطع الصلة بين طبقات المجتمع وتتلوث الحالة النفسية للشعب فلا ثقة نفسية تقرب بعضه الى بعض أو تشيع فيه التعاطف النفسى فيتدافع الى شيء من تواد أو تراحم يخفف من حدة غرائز التملك والاقتناء والسيطرة السائدة فيه .

وهذا الوضع المادى أثر للوضع السياسى .. وكلاهما اثر فى **الوضع الادبى** .. ومثل هذه الحياة التى تلقى ظلالا من الشك فى العدالة ، تلقى فى الروع أن الارض ليست مجالا لحق يسود لان الثقة فى كل نظام ذاهبة ، وتوهم ان الحياة الدنيا شقاءومحنة والفرار منها أمنية ، والنقص فيها محتوم ..ولهذا الشك واليأس أثره **العقلى والعملى والنفسى والوجدانى** .

أما الاثر العقلى فيبدو فى ذلك الطابع الغيبى فى التفكير والذى يتمثل فى مثل قولهم عقب كل شيء ... هكذا أراد الله .

أما **الاثر العملى** فيبدو فى الخفاء والاحتيال الذى كان يسود الحياة فى مصر ، فالمهارة فى التخفى كانت الطريق الى النجاح فى الحياة العملية . والرغبة فى التخفى لها انعكاسات فى الاثاث المصرى

والابنية المصرية الى عهد ليس ببعيد ففى الارائك والاصونة سراديب متداخلة ، وفى البيوت القديمة لاترى شرفات ظاهرة بل «مشربيات حاجبة» فالحياة المصرية كلها كانت قائمة على التخفى بل ان طاقية الاخفاء التى يتردد ذكرها فى أقاصيصنا هى انعكاس لهذه الرغبة فى التخفى .

والقرية المصرية تتجمع بيوتها وتتساند حتى ليسهل الوثب من سطح بيت الى آخر ، بينما القرية الغربية متناثرة ، وتجمع بيوت القرية المصرية حتى لتبدو قطعة واحدة انما هو انعكاس للخوف حتى اذا استنجد أحدهم لبى الجميع ...

أما الاثر النفسى فيبدو فى النفوس التى لوثها الشك واليأس والحيرة ... يبدو فى النفوس التى سلبت الطمأنينة والراحة ففقدت بذلك كل شىء وأصبحت حياتها جحيما لايطاق .

أما الاثر الوجدانى فيبدو فى الادب الذى أسف فكذب حين مدح الظالم وهو ينقم عليه .

هذه الحياة العقلية والنفسية والوجدانية حدت الى اضطهاد الفلاسفة والعلماء لمحض التفكير مع أن الفلسفة الاسلامية قوامها التوفيق بين الدين والعلم ولكن الناس ليس فى نفوسهم ما يوحى الثقة بهذا ... هم لايؤمنون بأن الحياة تجرى وفق نواميس ثابتة بل كل شىء عندهم قابل للتغيير ، والكون على حد تعبيرهم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء والفن قائم على هذا وفيه منه أصداء فما نراه من شكوى الزمان ومدح الحاكم المذنب فى الادب الكاذب ، والاغانى المهرجة ، وترديد الشعب لمثل هذه الامثلة (تبقى نار تصبح رماد) و (ان حلى زادك كله كله) فالادب العامى الذى هو أدب الشعب وظل نفسه ينم عن حيرة وقلق نفسى ينتهى الى التفويض والتسليم بقضاء الله وماكان الله ليقضى بهذا .
واغلبنا لا يفهم المعنى الدينى فهما قريبا ... فان قرأت عليهم :

(ليس للانسان الا ما سعى). فهموها الى جانب غيرها من آيات التوكل فتغلب عليها .. والمحافظون من أهل الاديان يميلون الى انكار السببية فالآية الكريمة (الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) « سورة فاطر » الباء فى رأيهم للالصاق لا للسببية ... وهم يفسرون كل شىء يجرى تحت عيونهم بوحى هذه الغيبية التى يعتنقونها ...

حتى شكوى الزمان كانت صورة لفهمهم الخاطىء للحياة فهم يتوهمون أنه لا يدوم سرور أو حزن ... ولهذا ظل واثر عالق فينا الى اليوم.. يضحك المسرور منا ثم يقول: اللهم اجعله خيرا كأنه يتوقع الشر ما دام سر حينا ، وكأن الشر فى أعقاب الخير ! لماذا ؟ ومن سوء فهمهم حملهم معنى (ان شاء الله) على التواكل ... ان هذه المشيئة ان هى الا تأكيد للعزم فأنا سوف أفعل كذا ثم هناك صمام أمن لما يطرأ مما لاقدرة لنا عليه ... ولكن قائلنا يقولها حين ينوى الا يفعل متهربا ... وفى مشيئة الله عن الكذب مندوحة ...

حين دهمنا الاستعمار أوهمنا مصريين وشرقيين اننا لاشىء ولا نستحق شيئا فتعددت ظواهر الاتهام فينا ... فان رأوا ناجحا لا يعدون نجاحه عملا أو ذا أسباب معقولة بل هو عندهم طفرة ووثبة وأعجوبة واثر محاباة ومحسوبية أو حظ ، ونسينا أن الحظ توفيق من الله ... واذا رأوا فاشلا لا يردون فشله الى سبب ...

والى هذا الطابع يرجع اكثر عيوبنا فى الحياة والتصرف ... فنحن لا نثق فى الديمقراطية لان الديمقراطية أساسها ثقة الفرد بنفسه وبكيانه وبحقه، وقد عجزنا أو عجز الكثيرون منا عن فهم هذه المعانى . فتطلعوا الى الآخرة تهربا من الدنيا ... ولما كان الزهد أقرب طريق الى الاستعلاء فقد تعددت أسبابه وكثرت مظاهره من مخرقة وحرمان وعجز . وكان لهذه الغيبية أصداء فظهرت

مذاهب وفرق وطرق للصوفية وأشاير ... وزاد الاقبـــال على الاضرحة وتسرب الخطأ فى المفاهيم الى مفهومنا للولاية والاولياء.. مع أن الولى قيمة معنوية تجسد كل ما فى عالم الانســان الاعلى من نبل وسمو وتضحية وفداء ...

***

لقد وصفت بهذه السطور ، الفترة من أواخر القرن التاســع عشر وأوائل القرن العشرين فهل اختلف واقع الحال عن هذا ؟
قاس أن يضيع من عمر أمة سنين .

والآن :

لا وقت للتحسر
أعيدوا تشكيل الحاضر
واختصارا للوقت والجهد
انفتحوا على العالم المتحضر
خذوا خير ما عند الناس بدون عقد
بلا استخذاء فقد أعطينا الغرب ، يوما .
وبلا استعلاء فنحن بشر قد نخطىء حين يصيب غيرنا .
نتفحص أنفسنا
ونواجه الحقيقة
نعيد كتابة التاريخ ؟

من جديد ..

هذا الكتاب كتبته بعد أن عشته .. بعضه كان ألما وبعضه كان أملا ، وبعض كان معنى يلوح فى الخاطر ثم يعز على التحقيق .

ولكنى **بالوراثة والدراسة** لم أيأس فتاريخنا ملىء بالمحن التى ارتفعنا عليها ، والأشواك التى تحديناها ، والدموع التى جففناها ثم تصالحنا مع الفرح ، وسامحنا الجرح وصافحنا النعمة كما تصفو السماء غب المطر .

الدين .. والفن .. والحضارة .. والعصرية .. والتراث ، والمدرسة واسلوب التعليم .. كلها موضوعات عشتها وشربتها من الدراسة والتأمل والتفكير . وعرفت من الحياة والكتاب والبيت والجامعة واقعنا فيها بتجاربه وأخطائه ومسئولياته ورؤاه .

وانصهر فى نفسى هذا كله فغمست قلمى فيه بالصدق كله ، وبمصريتى كلها أسجل الأسباب والعلل وأرسم المثل والأمل وأتمثل اليوم والغد لنا ولأبنائنا .. أما الماضى فقد حمل جيلنا أوزاره وآثاره لأنه لم يقو على التيار فجرفه التيار .

لقد سميت الكتاب (أعيدوا كتابة التاريخ) وقلبت الصفحات كلها ، وعرضت نماذج من الأخطاء الكبيرة التى يفدح ثمنها الشعوب .. وقد يتورط فى هذا الثمن الفادح أكثر من جيل . يغرمون ليغنم الآخرون فى الخارج أو الداخل .

وصبر الشعوب طويل ولكن حسابها عندما يحين ، عسير . ولم يعرف الصبر بعد الزمن الطويل ، شعبا كاظما عافيا وان يكن غير معاف ، كشعبنا ... ولكن الحليم اذا غضب ، يتغير التاريخ فى محاولة جديدة للكتابة ترشد عليها الأحكام وأصحابها ، ويستقيم ميزان العدل استجابة **لأمنية قديمة** نادى بها فى مصر ، يوما ، الفلاح الفصيح ...

ولكن يبقى بعد هذا أكثر من خط وضعت تحته خطا فى هذا الكتاب للتمييز والتفكير ، **ولكن المعالجة الكاملة سأفرد لها كتابا قائما بذاته** أتحدث فيه عن :

(**الانفتاح الذى لم يذكره أحد**) أين ومتى ولماذا ؟ والذى لم ننتبه عليه ولم نذكره ، كبير خطير لو انتبهنا اليه وأخذنا به **سيتغير التاريخ على هذه الأرض** ، بل ، ربما ، فى العالم .

ما زالت هناك فى تاريخنا القريب والبعيد علامات استفهام حائرة لو قدر لها **الاسراء والاثراء لغدت علامات طريق** ...

حين أختم هذا الكتاب ، أعاهد الله والنيل **أن أبدأ كتابا** يليه على طريق الشخصية المصرية وما يمكن أن تحققه لو انفسح الطريق وانفتح الأمل والعمل أمام قدراتها وحرياتها ووسائلها .

انه موضوعى الكبير وهمى الشاغل الذى أعطيه أيامى حتى يعود الانسان المصرى عزيزا كما بدأ .. فبدأ به التاريخ ؟

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

فى هــذا الكتــاب

صفحة

دار الشروق

مطابع منكور وأولاده

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٣٥٧٦م

هذا الكتاب

دعوة كبيرة رائدة الى اعادة كتابة التاريخ فى عملية تنقية ، وتعرية ، وتصحيح من الزيف والتضليل والتحريف . وبهذا أضاف الكتاب الى المكتبة العربية ، القضايا التى غابت عنها من تهيب الكاتبين أو تحرجهم ، أو ضبابية الرؤية ، أو خوف المصير .

يقدم هذا الكتاب برؤية جديدة وأسلوب جديد معمق ومكتنز ، على الغوص فى تاريخ مصر : ماذا فيه من أخطاء وخطايا ؟ ومن هم الجناة الذين أرادوا أمة التاريخ بلا تاريخ .. ؟ .. كيف يصنع الديكتاتور ؟

فى عملية تشريح للماضى والحاضر ، صادقة وأمينة وموضوعية ...

ناقش الكتاب : المفاهيم الثابتة فى التاريخ بأبعادها التاريخية محددا نصيبها من الصدق أو الوهم .

تناول الكتاب : فى روح علمية انسانية مفهوم مصر للدين والفن ..

كما واجه الكتاب فى دراسة نزيهة :

الأقباط والمسلمين

التحرر من الخوف وابداع الحضارة

الدولة العصرية

كيف نعيش .. ماذا تعلم مدارسنا ؟

هذه بعض القضايا التى أثارها الكتاب فى انطلاقة رائدة وجرأة متحررة من الخوف والعقد والتقليدية والنفاق .

٦٠ ص

